الفصل الثاني

دور الفقهاء والعلماء في الجهاد ضد الصليبيين
منذ وصول الحملة الصليبية الأولى
إلى الشام حتى موقعة حطين
(491 ـ 583هـ/ 1097 ـ 1187م)

- استنكار العلماء والفقهاء للغزو الصليبي على بلاد الشام، ودورهم في إثارة حماس المسلمين للجهاد ــ موقفهم في أنطاكية ــ موقفهم في بيت المقدس ــ العلماء والفقهاء الذين استشهدوا في بيت المقدس سنة 492هـ/ 1098م ـ العلماء والفقهاء يخرجون إلى بغداد مستنكرين ومستنفرين للمذابح التي حدثت في بيت المقدس.
- دورهم في محاولة إزالة أسباب الشقاق بين أبناء البيت السلجوقي تمهيداً لبناء الوحدة الإسلامية.
- فخر الملك بن عمار قاضي طرابلس ومراحل مقاومته للصليبيين حتى سقوط طرابلس في أيديهم سنة 502هـ/ 1108م.
- دور قاضي صيدا سنة 504هـ/ 1110م في حقن دماء المسلمين أثناء حصار الفرنج للمدينة.
- سقوط صيدا في أيدي الصليبيين وأثر ذلك على الفقهاء المسلمين ببغداد ــ دور أحد شيوخ طرابلس في إنهاء حصار الصليبيين لصور سنة 505هـ/ ـ دور القاضي أبو الفضل بن الخشاب في حلب.
- موقف العلماء والفقهاء من تحالف بعض حكام المسلمين مع الصليبيين.
- موقف الفقهاء والعلماء من تعاطف بعض الحكام المسلمين مع طائفة الإسماعيلية.
- دور الفقهاء والعلماء ومكانتهم في عصر عماد الدين زنكي.
- دور الفقهاء والعلماء ومكانتهم في عصر نور الدين محمود.
- دورهم ومكانتهم في عصر صلاح الدين الأيوبي حتى موقعة حطين.

obeikandl.com

obeikandl.com

أوضحنا في الفصل السابق الأوضاع السياسية التي كانت سائدة في كل من مصر والشام والعراق قبيل الغزو الصليبي لمنطقة الشرق الأدنى الإسلامي، وبينّا ردود الفعل الإسلامية تجاه ازدياد الخطر الصليبي في المنطقة طوال الفترة الممتدة من أواخر القرن الخامس الهجري حتى نهاية القرن السابع الهجري (أواخر القرن الحادي عشر الميلادي حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي).

وسوف نتناول في هذا الفصل الدور البارز الذي قامت به صفوة المسلمين المختارة من الفقهاء والعلماء في الجهاد ضد الصليبيين منذ أن وطأت أقدام الصليبيين أراضي الشام عام 491هـ/ 1097م حتى موقعة حطين عام 583هـ/ 1187م. فقد جاهدوا في تلك الفترة العصيبة للذود عن الإسلام والمسلمين، فمنهم من حمل السلاح وقاد المعارك، ومنهم من وقف إلى جانب القادة في المعارك كمرشدين وأهل للشورى وتذكرة وتفقيه لهم بأحكام الجهاد والفيء والغنائم. وأغلبهم جاهدوا بالكلمة في مجال شحذ الهمم بالوعظ والإرشاد والحث على الجهاد ورفع الروح المعنوية للمجاهدين للصمود ومصابرة العدو في المعارك.

وجدير بالذكر أن المؤرخين المسلمين ضد ضنوا علينا في كثير من الأحيان بذكر معلومات وافية ومفصلة عن الدور الذي قام به هؤلاء الفقهاء والعلماء في الجهاد ضد الصليبيين، حتى أصبح لزاماً علينا أن نقرأ ما جاء بين سطور كتاباتهم، ونقوم بتحليل وتفسير كثير من الكلمات التي أوردوها

بغية الوصول إلى الحقائق التاريخية البارزة في فترة هامة من فترات تاريخ الأمة الإسلامية المعاصرة لموضوع البحث.

فعندما اشتدت هجمات الصليبيين على مدينة أنطاكية عام 491هـ/ 1098م[1] تفرقت معظم القوات العسكرية المكلفة بحماية المدينة، وانفض الجند عن حاكمهم كربوغا وتركوه وسط عدد قليل من جنوده حتى عجز عن المقاومة وانهزم ورحل إلى حلب وتسلم الصليبيون المدينة[2].

وإذا كان المؤرخون المسلمون لم يبرزوا الدور الذي قام به فقهاء مدينة أنطاكية وعلماؤها تجاه ذلك العدوان الصليبي الموجه ضدهم، إلا أن هناك عبارات غامضة أوردوها يمكن أن نستنتج منها دور هؤلاء الفقهاء والعلماء في حث المسلمين من أهالي أنطاكية بضرورة الصمود في الدفاع عن مدينتهم حتى آخر رمق. فيذكر ابن القلانسي في كتابه «ذيل تاريخ دمشق»: «وقع السيف في الرجال المتطوعين والمجاهدين والمغالبين في الرغبة في الجهاد وحماية المسلمين»[3]. كما ذكر أيضاً ابن العديم في كتابه «زبدة الحلب»: «وقتل من المطوعة[4] والغلمان والسوقة خلق كثير»[5].

ونستنتج من خلال ذلك أن هناك من دفع بهؤلاء المسلمين من عامة الشعب للوقوف هذا الموقف البطولي في الجهاد في سبيل الله دفاعاً عن

---

(1) انظر ما سبق ص 88 ـ 89 من الفصل الأول.

(2) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 136.

(3) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 136.

(4) يذكر أبو يعلى بن الفراء أن «المقاتلة صنفان مسترزقة ومتطوعة. أما المسترزقة: فهم أصحاب الديوان من أهل الفيء، فيفرض لهم العطاء من بيت المال، بحسب الغناء والحاجة. وأما المتطوعة: فهم الخارجون عن الديوان من البوادي وسكان القرى والأمصار الذين خرجوا في النفير اتباعاً لقوله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾، وهؤلاء المتطوعة يعطون من الصدقات ولا يعطون من الفيء». أبو يعلى بن الفراء: المصدر السابق، ص 23.

(5) ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 137.

الإسلام والمسلمين، عن طريق الوعظ والإرشاد. فهم المسؤولون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسؤولية الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله ضد أعداء الدين تقع على عاتقهم جنباً إلى جنب مع الحكام المسلمين. فهؤلاء العلماء والفقهاء بما وهبهم الله من بصيرة نافذة وإحساس مرهف يستطيعون معرفة الخطر ويستشعرونه من بعد، وبالتالي ينبهون بقية المسلمين به كي يتلافونه، خاصة إذا كان هذا الخطر قادماً من خارج بلاد المسلمين ليهدد الإسلام والمسلمين في عقر دارهم. ويحتمل أيضاً أن يكون بين صفوف هؤلاء المتطوعين الكثير من الفقهاء والعلماء الذين حملوا السلاح مثلهم مثل غيرهم من المسلمين من أهل أنطاكية الذين دفعتهم حميتهم الدينية لمقاتلة أعداء الإسلام والمسلمين، وليزيدوا من قوة المسلمين وصمودهم في المقاومة والمصابرة عندما يقفوا جنباً إلى جنب كالبنيان المرصوص، خاصة وأن المسلمين يقتدون بهم في كل شيء.

ولقد واصل الصليبيون زحفهم صوب بيت المقدس بعد أن استولوا على مدينة أنطاكية، وحاصروها حصاراً شديداً استمر نيفاً وأربعين يوماً[6]. وقاومهم الأهالي وحامية المدينة مقاومة عنيفة بقيادة الحاكم الفاطمي افتخار الدولة، ولكن كثرة حشود قوات الصليبيين جعلت المسلمين يفقدون الأمل في إنقاذها ويدركون عدم جدوى مقاومتهم فاتجهوا إلى الحرم القدسي الشريف ووطدوا عزمهم على أن يتخذوا من المسجد الأقصى معقلاً لهم يقاومون من خلاله هذا الهجوم الغاشم، ولكن الأمر انتهى بدخول الصليبيين المدينة والاستيلاء عليها، وقاموا بمذبحة رهيبة للمسلمين واليهود الذين بداخلها. واستمروا أسبوعاً يقتلون المسلمين بالشوارع والدور والمساجد، ولم يرحموا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا عالماً. بل لقد اقتحموا المسجد الأقصى على المسلمين الذين به وقتلوا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين

(6) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 136 ـ 137، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 19، العليمي: المصدر السابق، ج 1، ص 272.

وعلمائهم وعبادهم وزهادهم[7].

وأكد المؤرخون المسلمون والصليبيون على أن افتخار الدولة قد لجأ مع عدد من جنوده إلى محراب داود ومكثوا فيه ثلاثة أيام يقاتلون ويقاومون في عنف، ولم يتركوا سلاحهم إلا بعد أن أمنهم الصليبيون على أنفسهم، فخرجوا من بيت المقدس وانطلقوا إلى عسقلان وهم يمثلون القلة الباقية من مسلمي بيت المقدس التي نجت من وحشية الصليبيين ومذابحهم[8].

ويتضح من إجماع المؤرخين على وحشية وضراوة المذبحة التي حدثت للمسلمين في المسجد الأقصى ـ وخاصة للأئمة والعلماء والفقهاء ـ وأن هذه الجماعة الكبيرة التي كانت آخر من استسلم للهجوم الصليبي على بيت المقدس. وأعتقد أن هذا يدل على أنهم لم يكتفوا بوعظ وإرشاد المسلمين وتقوية نفوسهم للصمود أمام هذا الهجوم وصده، وإنما شاركوا في حمل السلاح والدفاع المستميت عن المسجد الأقصى جنباً إلى جنب مع غيرهم من المسلمين الذين اتخذوا من المسجد معقلاً والتفوا حول راية هؤلاء العلماء وظلوا يقاومون جميعاً حتى اقتحم الصليبيون المسجد عليهم وأعملوا فيهم السيف وأحالوا المسجد الأقصى إلى بركة من دمائهم الزكية الطاهرة تطفو فوقها أشلاؤهم الممزقة[9].

---

(7) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 19، العليمي: المصدر السابق، ج 1، ص 272، ابن كثير، المصدر السابق: ج 12، ص 166 ـ 167، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 2، ص 221 ـ 222. انظر أيضاً المصادر الأجنبية التالية:

Fulcher of Chartres: Op. Cit., pp. 121-122, Raoul de Caen: Op. Cit., t. I, p. 522, Robert Le Moine: Op. Cit., t. I p. 17, Albert d'Aix: CF. BIB. des Crois, p. 58-59.

(8) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 19، العليمي: المصدر السابق، ج 1، ص 273، المقريزي: إتعاظ الحنفاء، ج 3، ص 23، أعمال الفرنجة، المصدر السابق، ص 120، رانسيمان: المرجع السابق، ج 1، ص 403 ـ 404. انظر أيضاً:

Fulcher of Chartres: Op. Cit., p. 124, Albert d'Aix: Op. Cit., CF. BIB. des Crois, t. I. p. 59.

(9) انظر:

Fulcher of Chartres: Op. Cit., p. 124, Robert le Moine: Op. Cit., t. I, p. 17,

وكان من العلماء الذين استشهدوا في بيت المقدس: القاضي أبو القاسم مكي بن عبد السلام بن الحسين الأنصاري الرميلي الشافعي[10]، وكان قاضياً على بيت المقدس حينما هاجمه الصليبيون. وكانت منزلته في العلم عالية فكانت الفتاوى ترد إليه من مصر والشام وغيرهما ليدلي فيها برأيه وبحكمه. فلما دخل الصليبيون بيت المقدس قبضوا عليه وساقوه أسيراً، فلما علموا أنه من علماء المسلمين طلبوا فدية عنه قدرها ألف دينار. ولما خاب أملهم في ذلك رموه بالحجارة على باب أنطاكية حتى قتلوه[11].

وهناك أيضاً الشيخ أبو القاسم عبد الجبار بن أحمد بن يوسف الرازي الشافعي، وهو أحد الفقهاء الذين برزوا وحملوا السلاح وجاهدوا لصد العدوان الصليبي عن بيت المقدس. تفقه بأصبهان ثم استوطن بغداد مدة ثم انتقل إلى بيت المقدس وسلك سبيل الورع، ولكنه استشهد بعد استيلاء الصليبيين على القدس مع جملة المسلمين الذين استشهدوا في ساحة القتال في شعبان 492هـ/ يوليو 1099م[12].

وكان لاستيلاء الصليبيين على مدينة بيت المقدس وما فعلوه بأهلها من

Raoul de Caen: Op. Cit., t. I, p. 522, Albert d'Aix: Op. Cit., t. I, pp. 58-59.

انظر أيضاً: جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، 1964، ص 327.

(10) هو مكي بن عبد السلام بن القاسم أبو القسم الأنصاري الرميلي المقدسي الحافظ، مؤرخ من الحفاظ من أهل بيت المقدس ونسبته إلى الرميلة بفلسطين، وهو أحد الجوالين في الآفاق وكان كثير النصب والتعب والسهر. تغرب وطلب وجمع وكان ثقة متحرياً، وقد شرع في كتابه «تاريخ بيت المقدس وفضائله» وجمع فيه شيئاً إلا أنه لم يتمه. ولد سنة 432هـ وقتل شهيداً في بيت المقدس سنة 492هـ/ 1099م. انظر: الذهبي، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، مخطوط بدار الكتب المصرية، ج 9، لوحة 18 ـ 19.

(11) العليمي: المصدر السابق، ج 1، ص 264 ـ 265، السبكي: المصدر السابق، ج 5، ص 332 ـ 333، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 73، حيث ذكره في «الرميلة» قال ياقوت: «ورجع إلى بيت المقدس، فأقام إلى أن مضى شهيداً على يد الفرنج يوم دخولهم بيت المقدس سنة 492هـ»، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 5، ص 164.

(12) الذهبي: المصدر السابق، ج 9، لوحة 14، العليمي: المصدر السابق، ج 1، ص 265، السبكي: المصدر السابق، ج 5، ص 98.

مذابح وحشية، صدى واسع النطاق ودوي هائل في العالم الإسلامي، إذ قام العلماء والفقهاء والقضاة في بلاد الشام ـ على وجه الخصوص ـ بدورهم في توعية الناس في كل مكان بخطورة هذا الزحف الصليبي على بلاد الإسلام والمسلمين. كما أخذوا يحثونهم على الجهاد ونبذ الخلافات القائمة بينهم للوقوف صفاً واحداً لصد هذا العدوان الغاشم. فخرجت جماعات كثيرة من المسلمين المستنفرين من بلاد الشام في مظاهرة دينية متجهة إلى العراق تحت زعامة بعض هؤلاء الصفوة المختارة من الفقهاء والعلماء، وفي مقدمتهم قاضي دمشق زين الدين أبو سعد الهروي[13]، فلما وصلوا بغداد في رمضان من العام نفسه قابلوا كلا من الخليفة العباسي المستظهر بالله (487 ـ 512هـ/ 1094 ـ 1118م) والسلطان السلجوقي بركيارق بن ملكشاه (489 ـ 497هـ/ 1096 ـ 1103م) واستنجدوا بهما ثم اجتمعوا بالناس في المساجد واستغاثوا من ويل ما لاقاه المسلمون على أيدي الصليبيين ببيت المقدس، وأوضحوا للناس فداحة ما جرى. ثم حضروا الديوان وقطعوا شعورهم، وقام القاضي أبو سعد الهروي وألقى أبياتاً من الشعر توضح مأساة ما جرى للمسلمين، يحث فيها الخليفة العباسي والمسلمين على سرعة الخفوق لإنجاد أهل الشام حمية للدين والمحارم. وأورد القاضي كلاماً مؤثراً، فلما سمع الحاضرون هذا الأمر الفظيع هالهم ذلك وتباكوا من شدة التأثر وارتفع بكاؤهم حتى أن بعضهم أفطروا من عظم ما جرى عليهم[14].

---

(13) هو محمد بن نصر بن منصور أبو سعد الهروي، أحد الفقهاء الرؤساء، أرسله الخليفة ليخطب له بنت السلطان سنجر فقتله الباطنية بهمذان ـ وولي القضاء بمدن كثيرة من بلاد العجم، وولي قضاء الشام مدة وقضاء بغداد مدة، وشرفت له الحال وعظمت رتبته وعلا صيته. قتل سنة 519هـ، انظر: العماد الأصفهاني: خريدة القصر، ج 1، ص 41، حاشية 6، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 234، السبكي: المصدر السابق، ج 7، ص 22، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 5، ص 150، وص 228.

(14) أبو الفدا: المصدر السابق، ج 2، ص 221 ـ 222، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 166 ـ 167، سبط بن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 521، العليمي: المصدر السابق، ج 1، ص 273 ـ 275، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 5، ص 150 ـ 152.

وفيما يلي أبيات الشعر التي ألقاها قاضي دمشق أبو سعد الهروي وفق ما وردت في المصادر التاريخية:

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا رماحهم والدين واهي الدعائم
وتجتنبون النار خوفاً من الردى ولا تحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعارب بالأذى وتغضى على ذل كماة الأعاجم؟
فليتهموا إذ لم يذودو حمية عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وإذ زهدوا في الأجر حمى الوغى فهلا أتوه رغبة في الغنائم؟[15]

وإزاء هذه الاستغاثة قام الخليفة العباسي ببغداد بإيفاد فقهاء بغداد إلى الملوك والحكام المسلمين لحثهم على الجهاد، وكان في مقدمة هؤلاء قاضي القضاة الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي[16]. وقد بذل هؤلاء الفقهاء قصارى جهدهم لحث الملوك والناس على سرعة إنقاذ أهل الشام من محنتهم مستعينين على ذلك بعلمهم، وبكل ما جاء في كتاب الله الكريم والأحاديث النبوية الشريفة بوجوب الجهاد في سبيل الله والوقوف مع إخوانهم المسلمين في مواجهة أعداء الإسلام والمسلمين صفاً واحداً كالبنيان المرصوص. ولكن لم يفد ذلك شيئاً وعاد الفقهاء إلى بغداد، وعاد القاضي

(15) معنى أبيات الشعر: يتحسر الشاعر على ماضي أمته المجيد، ويستنكر ما آلت إليه وكيف أن قومه تخاذلوا عن جهاد الأعداء وخافوا وتقاعسوا. واعتبر ذلك عاراً وفيه يحثهم على الجهاد، إن لم يكن في سبيل الله فليكن ذوداً عن المحارم، وإن لم يكن طمعاً في الأجر فليكن من أجل المغنم.

(16) هو قاضي القضاة أبو الوفاء علي بن محمد بن عقيل الفقيه البغدادي ـ كان مولده سنة 431هـ/ 1039م وتوفي سنة 512هـ/ 1118م، وبرز على أقرانه وساد أهل زمانه في فنون كثيرة. وكان يجتمع بجميع العلماء من كل مذهب. انظر: ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة، طبعة بيروت، بدون تاريخ، ج 2، ص 259، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 167 وص 197، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 2، ص 222، العليمي: المصدر السابق، ج 1، ص 273.

ومن برفقته من بغداد إلى الشام بغير نجدة[17].

وهكذا عاد المستنفرون من بغداد بخفي حنين، فيبدو أن الخوف من الصليبيين قد سرى في الشرق الإسلامي وخدر الأعصاب. فلم تجد هذه الصرخات والاستغاثات القوية أي صدى أو تحرك فعلي من قادة المسلمين في بغداد وهما الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي. وقنع المسلمون بالتحسر وإبداء الأسى ونسبوه إلى المقادير[18].

ولا شك في أنه كان تقاعس حكام المسلمين عن الجهاد فيه ضرر بالغ على الإسلام والمسلمين، الأمر الذي ساعد الصليبيين كثيراً وجعلهم يتمادون في وحشيتهم وقسوتهم تجاه المسلمين من أهالي البلاد التي استولوا عليها، وشجعهم أيضاً في التوغل داخل الأراضي المقدسة بغية السيطرة عليها كلها. ولذلك لما أحس الصليبيون بمدى التفكك في صفوف الجبهة الإسلامية بعد سقوط بيت المقدس تشجعوا وقاموا بالزحف على بقية المدن الساحلية، وأخذت هذه المدن تسقط في أيديهم الواحدة تلو الأخرى، بينما كانت الخلافات تشتد بين الملوك والحكام المسلمين. ويعقب ابن الأثير على ذلك بقوله: «لما استطال الفرنج خذلهم الله تعالى بما ملكوه من بلاد الإسلام، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً فتفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء وتمزقت الأموال»[19].

وجدير بالذكر أن الفقهاء لم يقفوا أمام تلك الصراعات الدامية التي

---

(17) العظيمي: المصدر السابق، ص 373، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 137، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 20، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 5، ص 152.

(18) محمد نعيم ياسين: المرجع السابق، ص 198 ـ 199، فايد حماد عاشور: المرجع السابق، ص 128 ـ 129.

(19) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 72 ـ 73. ويقصد المؤرخ هنا ذلك الصراع الذي قام بين أبناء البيت السلجوقي عقب وفاة السلطان ملكشاه. انظر ما سبق ص 82 ـ 83 من هذا البحث.

كانت تهدد كيان الدولة الإسلامية آنذاك موقف المتفرج، وإنما كان لهم دور كبير في فض كثير من المنازعات القائمة بين الحكام والملوك في بعض البلدان الإسلامية حرصاً على تماسك المسلمين ووحدتهم. وقد نجحوا بالفعل إلى حد كبير، فكان للفقيه الكيا الهراس[20] فضل كبير في الصلح بين ملكشاه بن بركيارق وعمه السلطان محمد عام 498هـ/ 1105م.

كما تجلى أيضاً دور الإمام العالم حجة الإسلام أبو حامد الغزالي[21] في ذلك الشأن وفي حث الحكام على ضرورة النضال، فعندما علم أن السلطان محمد بن ملكشاه تولى الحكم، أرسل له كتاباً يخاطبه فيه قائلاً: «أعلم يا سلطان العالم أن بني آدم طائفتان: طائفة غفلاء نظروا إلى مشاهد حال الدنيا، وتمسكوا بتأميل العمر الطويل ولم يتفكروا في النفس الأخير، وطائفة عقلاء جعلوا النفس الأخير نصب أعينهم لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم وما الذي ينزل

(20) هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري المعروف بالكيا الهراس الفقيه الشافعي، من أهل طبرستان، وخرج إلى نيسابور وتفقه على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني إلى أن برع، ثم خرج إلى العراق وتولى تدريس المدرسة النظامية ببغداد إلى أن توفي. ومولده كان سنة 450هـ وتوفي ببغداد سنة 504هـ. وكان هذا الفقيه قد اتصل بخدمة بركيارق بن ملكشاه وحظي عنده بمكانة عظيمة وارتفع شأنه وتولى القضاء بدولته وظل على مكانته بعد وفاة بركيارق. انظر ترجمته في ابن خلكان: المصدر السابق، ج 3، ص 286 ـ 290، السبكي: المصدر السابق، ج 7، ص 231 ـ 234، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 142، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 2، ص 236، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 184 ـ 185.

(21) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي ـ الملقب حجة الإسلام ـ زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي، ولد سنة 450هـ واشتغل في مبدأ أمره بطوس على أحمد الراذكاني ثم قدم نيسابور ثم فوضه نظام الملك بتدريس مدرسته النظامية ثم درس في دمشق ثم عاد إلى طوس وصنف الكتب المفيدة من أشهرها كتاب الوسيط، والبسيط، وإحياء علوم الدين، وهو من أنفس الكتب وأجملها، وتهافت الفلاسفة.. وغيرها كثير، ووزع أوقاته على وظائف الخير من ختم القرآن ومجالسة أهل القلوب والقعود للتدريس إلى أن توفي سنة 505هـ ودفن بطوس. انظر ترجمته في ابن خلكان: المصدر السابق، ج 4، ص 216 ـ 219، السبكي: المصدر السابق، ج 6، ص 191 ـ 389.

من الدنيا في قبورهم وما الذي يتركون لأعاديهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله»[22].

ولا شك أنها نصيحة غالية ودرس عظيم يحتذى به في كل زمان ومكان إلى أن تحين الساعة، فقد تجرأ الإمام الغزالي بدعوة السلطان محمد بن ملكشاه ونصحه بعدم الغفلة والاغترار بمباهج الدنيا ونسيان الآخرة والأعمال الصالحة التي تنفع صاحبها في آخرته ظناً منه بامتداد العمر، موضحاً له أنه من العقل ألا يتجاهل الإنسان أن الأجل قريب وأنه لا بد أن يسرع بعمل الأعمال الصالحة ويؤدي ما عليه لله تعالى حتى يخرج من الدنيا كامل الإيمان، فالإنسان لن يأخذ معه إلى قبره إلا العمل الصالح. ثم ينصحه الإمام الغزالي نصيحة غير مباشرة يتفجر من كل حرف فيها الحث على جهاد الأعداء، فيخبره أن العقلاء يخططون ويدرسون ما الذي يتركون لأعدائهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله، أي يجب أن يتخذوا حيال أعدائهم أعمالاً من شأنها أن تظل مؤثرة فيهم حتى بعد أن يموت هؤلاء العقلاء، وتظل آثار أعمالهم في ذاكرة أعدائهم. فكان لهذه النصيحة العظيمة رد فعل كبير عند السلطان محمد بن ملكشاه، فبمجرد أن انفرد بالسلطنة بدأ في بعث حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين[23].

وهناك أيضاً دور آخر من أدوار جهاد الفقهاء قام به القاضي فخر الملك ابن عمار[24] ـ حاكم طرابلس ـ فعندما تولى أمر طرابلس اعتباراً من

---

(22) ورد هذا النص في ترجمة محمد بن ملكشاه السلجوقي. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 5، ص 72 ـ 73.

(23) انظر ما سبق بالفصل الأول، ص 80 ـ 82.

(24) هو أبو علي عمار بن محمد بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن إدريس بن أبي يوسف الطائي، من أسرة فاقت شهرتها في العلم كل ما كان لها من صفات حربية كان يجمع بين حكم طرابلس والقضاء بها. وقد ذكره ابن خلكان ضمن ترجمة منير الطرابلسي ولم يفرد له ترجمة خاصة به. راجع: ج 1، ص 160. انظر أيضاً: العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ج 2، ص 7 ـ 8، العظيمي: المصدر السابق، ص 375، المقريزي: المصدر السابق، ج 3، ص 42.

سنة 492هـ/ 1098م وقع على عاتقه مهمة الدفاع عنها وعن البلاد التابعة لها مثل عرقة[25] وانطرطوس من الغزو الصليبي الذي اجتاح بلاد الشام، وقد نهج أساليب عديدة في هذا الشأن حتى نجح في أن يستبقيها بأيدي المسلمين حوالي إحدى عشرة سنة بفضل عزيمته وحركته الدائبة التي لم تعرف الكلل ولا اليأس.

ففي عام 492هـ/ 1099م عندما اقتربت جحافل العدو الصليبي من أسوار طرابلس أسرع حاكمها فخر الملك بن عمار إلى مهادنتهم بتقديم الأموال والهدايا وبعض الجياد لهم، لإحساسه بعدم استعداده لمواجهتهم بعد[26] حتى لا يعرض نفسه والمسلمين وإمارته للإبادة على أيديهم. ونحن لا نستبعد أن الدافع وراء انتهاج القاضي فخر الملك بن عمار وغيره من حكام المدن الإسلامية لسياسة المهادنة مع الصليبيين في ذلك الوقت، هو تمزق شمل المسلمين وعدم وجود قوة إسلامية كبرى تستطيع الوقوف في وجه هذا الخطر الصليبي، خاصة بعد أن انكشف أمر الاتفاق الذي تم بين الفاطميين والصليبيين وما ترتب عليه من هزيمة السلاجقة في أنطاكية، وهو أن يقف الفرنج عند أنطاكية ويستولي الفاطميون على بيت المقدس ويساعدوا الصليبيين ضد السلاجقة[27]. على أية حال لم تفلح سياسة المهادنة التي اتبعها ابن عمار مع الفرنجة إذ قام ريموند الصنجيلي Raymond بالهجوم

(25) عرقة: بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ وهي آخر أعمال دمشق، وهي في سفح جبل بينها وبين البحر نحو ميل وعلى جبلها قلعة لها. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 4، ص 109.

(26) لمزيد من التفصيلات حول الهدايا المرسلة إلى الفرنج انظر: أعمال الفرنجة، المصدر السابق، ص 113، وكذلك انظر رانسيمان: المرجع السابق، ج 1، ص 388، وكذلك: Robert le Moine: Op. Cit., t. 1, pp. 16-17.

(27) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 13 ـ 14، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 5، ص 147، أعمال الفرنجة: المصدر السابق، ص 59 وص 63. انظر أيضاً: جمال سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1964، ص 67، سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، 1977، ص 166 ـ 172. انظر أيضاً:

على طرابلس وفرض عليها حصاراً شديداً سنة 495هـ/ 1101م حيث كان يطمع في تأسيس إمارة مستقلة بها أسوة برفاقه من القادة الصليبيين في كل من الرها وأنطاكية وبيت المقدس. ولما شعر فخر الملك بحرج موقفه اضطر إلى طلب النجدة من حمص ودمشق، غير أنه لم يظفر بطائل وانهزم أمام الصليبيين[28]. فاضطر القاضي ابن عمار إلى مهادنة الصليبيين مرة أخرى على مال وخيل فوافقوا ورحلوا عن طرابلس إلى انطرسوس واستولوا عليها «في جمادى الآخرة من السنة نفسها»[29]. ولكن ريموند أعاد الكرة مرة أخرى وهاجم مدينة طرابلس منتهزاً فرصة وصول أسطول جنوى إلى اللاذقية في سنة 497هـ/ شتاء 1103م، ولكنه فشل هذه المرة أيضاً بفضل شجاعة القاضي فخر الملك ابن عمار وصبره وعدم يأسه وتشجيعه لأهل طرابلس على مواصلة المقاومة لدفع الأعداء عن بلدهم، فاضطر ريموند إلى أن يتجه بالأسطول الجنوي في العام نفسه لمهاجمة ثغر جبيل التابع لابن عمار، فاستولوا عليه وغدروا بأهله[30].

وهكذا أصبح القاضي فخر الملك بن عمار معزولاً تماماً عن المدن المجاورة بعد أن جرد الصليبيون طرابلس من جميع المدن التابعة لها، ولم يبق أمامه سوى الاستيلاء على مدينة طرابلس نفسها بوصفها العاصمة الطبيعية للإمارة التي يحلم بتكوينها. ولذلك بنى ريموند قلعة على الجبال المواجهة

Robert le Moine: Op. Cit., t. 1. pp. 8-9, William of Tyre: Op. Cit., t. 1. pp. 223-224, pp. 325-336.

(28) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 140 ـ 141، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 55، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج 1، ص 353 ـ 357، رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 96 ـ 97، انظر أيضاً:

Grousset, Op. Cit., t. 1. pp. 336-337.

(29) العظيمي: المصدر السابق، ص 375، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 140، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 55.

(30) العظيمي: المصدر السابق، ص 377، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 143، ابن الأثير: المصدر السابق: ج 9، ص 72. انظر أيضاً:

Heyd, Histoire du Commerce de Levant au moyen age, 2 Vols. Paris, 1886, t. 1. pp. 139-141.

لطرابلس عرفت باسم قلعة صنجيل[31]، ليتخذها قاعدة يسيطر بها على طرابلس. فقام القاضي ابن عمار بجهود كبيرة مع أهالي طرابلس لهدم هذه القلعة وإحراقها، مما ترتب عليه موت ريموند الصنجيلي متأثراً بحروقه التي أصيب بها أثناء حريق هذه القلعة في جمادى الأولى سنة 498هـ/ فبراير 1105م[32]. ولكن الفرنج كانوا قد صمموا بعد ذلك على استئناف الحصار البري حول مدينة طرابلس عن طريق قلعة صنجيل، فاضطر القاضي ابن عمار إلى طلب نجدة عاجلة من سقمان بن ارتق التركماني، صاحب حصن كيفا[33]، فلم يدخر وسعاً في التحرك تجاه طرابلس، ولكنه توفي في الطريق. فانقطع بذلك آخر أمل لبني عمار في الحصول على مساعدة خارجية تمكنهم من إنقاذ طرابلس[34]، فاضطر القاضي ابن عمار إلى أن يعتمد على أهالي المدينة فأخذ يعد العدة استعداداً لمواجهة الصليبيين بقدر الإمكانيات المتاحة في المدينة، فقام بجمع الأموال من بعض التجار الأغنياء من سكان طرابلس ووزعها على المجاهدين ليسد العجز الناتج عن كثرة ما سبق أن قدمه الصليبيين من أموال وذهب عندما عقد الهدنة معهم.

---

(31) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 95، انظر أيضاً:
رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 99 ـ 100، حيث يذكر أن هذه القلعة اكتمل بناؤها في ربيع 1104م وأن ريموند أطلق عليها اسم (جبل الحاج) وأنها اشتهرت عند العرب باسم قلعة صنجيل أي قلعة سان جيل، في حين أن العظيمي يذكر أن تعمير هذه القلعة في سنة 495هـ. العظيمي: المصدر السابق، ص 375.

(32) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 147، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 95 ـ 96، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 528، انظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 99 ـ 100.

(33) حصن كيفا: هي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على نهر دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر، وهي لصاحب آمد من ولد داود بن سقمان بن آرتق. انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 2، ص 256.

(34) العظيمي: المصدر السابق، ص 376، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 146 ـ 147، ابن الأثير: المصدر السابق: ج 9، ص 82 ـ 84 وص 96، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 1، ص 191. انظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 102 ـ 104.

وعلى الرغم من أن هذا المسلك الذي اتبعه القاضي ابن عمار مع التجار يعتبر تصرفاً ضرورياً شرعياً لاستكمال العدة وتجهيز الجيش بما يلزمه من معدات لمواجهة العدو[35] وأنه لم يقم بذلك من فراغ وإنما من واقع مسؤوليته التي تحتم عليه كحاكم للبلاد أن يستعين بأموال الرعية أو الاقتراض من التجار والأغنياء لسد هذا العجز في الأموال الموجودة بالبلد لمصلحة الإسلام والمسلمين.

وعلى الرغم من كل ذلك فإن هؤلاء التجار المسلمين قد خرجوا إلى الصليبيين وقالوا لهم: «إن صاحبنا صادرنا فخرجنا إليكم لنكون معكم»[36]. ولم يكتفوا بذلك التصرف المشين وإنما كشفوا للصليبيين عن الأماكن التي ترد منها الميرة والمؤن لابن عمار. هذا بدلاً من أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله عملاً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١﴾[37].

وعلى الفور قام الصليبيون بتشديد الحصار على هذه الأماكن التي كشفها أولئك التجار الصليبيين حتى يمنعوا دخول أي شيء إلى البلد فيضطر ابن عمار وأهل طرابلس للاستسلام لهم. ولكن على الرغم من ذلك فقد استمرت المدينة في مقاومتها للحصار ثلاث سنوات أخرى بفضل الله ثم بعزيمة ابن عمار وقوة إيمان أهل طرابلس ورفضهم الاستسلام من ناحية، وافتقار الصليبيين إلى أسطول بحري يحكم الحصار على طرابلس من جهة البحر من ناحية أخرى[38].

---

(35) يذكر القاضي أبو يعلى بن الفراء في هذا الصدد أنه «يلزم أمير الجيش في سياسته لجنده إعداد ما يحتاج إليه الجيش من زاد وعلوفة تفرق عليهم في أوقات الحاجة حتى تسكن نفوسهم إلى مادة يستغنون بها عن طلبهم، ليكونوا على الحرب أوفر وعلى منازلة العدو أقدر». انظر المصدر السابق، ص 28.

(36) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 96.

(37) سورة الصف، الآيتان 10 ـ 11.

(38) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج 1، ص 363، رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 103.

ولكن لما استبد اليأس من فك هذا الحصار وضاقت الأقوات وقلت بطرابلس، اضطر القاضي فخر الملك ابن عمار إلى ترك طرابلس والخروج إلى بغداد في رمضان سنة 501هـ/ مارس 1108م، لطلب النجدة من زعيمي العالم الإسلامي في المشرق آنذاك وهما الخليفة العباسي المستظهر بالله والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه السلجوقي (499 ـ 509هـ/ 1105 ـ 1115م). وقبل أن يترك فخر الملك طرابلس استناب بها ابن عمه أبا المناقب فعصى فيها، فقبض عليه أصحاب فخر الملك وتولوا الأمور بطرابلس[39].

ومكث القاضي فخر الملك ببغداد أربعة شهور أكرمه فيها كل من الخليفة والسلطان أحسن إكرام. ويصف ابن الأثير الحفاوة التي قوبل بها قائلاً: «وسير الخليفة خواصه وجماعة أرباب المناصب فلقوه وأنزله الخليفة وأجرى عليه الجراية العظيمة، وكذلك فعل السلطان وفعل معه ما لم يفعل مع الملوك الذين معهم أمثاله. وهذا جميعه ثمرة الجهاد في الدنيا ولأجر الآخر أكبر»[40]. ومع ذلك فإن فخر الملك لم يظفر بطائل من الخليفة والسلطان. وعاد إلى دمشق في محرم 502هـ/ 1109م وهنالك علم بأن طرابلس أصبحت تابعة للفاطميين إذ أن أهلها قد ضاق بهم الحصار الصليبي المضروب عليهم، فراسلوا الوزير الأفضل الفاطمي يطلبون منه أن يبعث إليهم والياً من قبله يتولى إدارة المدينة ويرسل لهم الغلة والميرة، فاستجاب لهم الأفضل وأرسل إليهم من قبله شرف الدولة بن أبي الطيب والياً على طرابلس[41].

(39) العظيمي: المصدر السابق، ص 378 ـ 379، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 160، العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ج 2، ص 7 ـ 8، حاشية 5، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 120 ـ 121، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 2، ص 234، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 181.

(40) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 121.

(41) العظيمي: المصدر السابق، ص 379 ـ 380، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 161، المقريزي: المصدر السابق، ج 3، ص 42 وص 79، شرف الدولة: لم نعثر له على ترجمة في بطون المصادر.

وهكذا عاد القاضي فخر الملك بن عمار من بغداد ليجد نفسه بلا وطنه وبلا أهله، إذ أن الوالي الفاطمي قبض على أهل بيته وأصحابه وذخائره وآلاته وأثاثه، وحمل الجميع إلى مصر في البحر[42]. ولذلك أقام فخر الملك بن عمار في دمشق عند أتابك طغتكين، الذي اقطعه الزبداني[43] وأعمالها[44].

ثم ما لبثت طرابلس أن سقطت بأيدي الصليبيين في ذي الحجة 502هـ/ 1108م، واستمر الحال بفخر الملك على هذا الوضع حتى خرج في سنة 516هـ/ 1122م إلى مصر حيث يقيم أهله. وهناك قرر له الخليفة الفاطمي الآمر 496 ـ 524هـ/ 1102 ـ 1129م داراً أعدت له وقرر له راتباً في كل شهر[45].

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر الدور الذي قام به قاضي صيدا وشيوخها في سنة 504هـ/ 1110م عندما اشتدت هجمات الصليبيين عليها بقيادة الملك الصليبي بلدوين الأول بمساعدة الأسطول النرويجي الذي كان قد وصل إلى الشام بقيادة سيجورد ملك النرويج للحج وزيارة الأماكن المقدسة[46]. فلما ضاق الحال بأهل صيدا من شدة الحصار الصليبي

(42) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 161، المقريزي: المصدر السابق، ج 3، ص 38 وص 42 ـ 43. انظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 105 ـ 106.

(43) الزبداني: كورة مشهورة ومعروفة بين دمشق وبعلبك، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 130.

(44) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 165، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 2، ص 234.

(45) المقريزي: المصدر السابق، ج 3، ص 78 ـ 80.

(46) لمزيد من التفصيلات حول حصار مدينة صيدا انظر:
ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 171، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 139، المقريزي: المصدر السابق، ج 3، ص 45. وكذلك أسامة زيد: صيدا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، ص 91 ـ 93، ولم نعثر في كتب التراجم أو غيرها من المصادر الإسلامية المعاصرة للفترة موضوع البحث أو المتأخرة عنها زمنياً ما يوضح لنا اسم قاضي صيدا أو شيء عن مولده أو دراسته أو سيرته الذاتية.

المفروض حول المدينة براً وبحراً، وفشلت جميع محاولاتهم لإنقاد المدينة من الوقوع في براثن الصليبيين ويئسوا من وصول أي نجدة إليهم. لم يجدوا بداً من التسليم بالتفاوض مع الملك بلدوين، فخرج قاضي صيدا ومعه جماعة من شيوخها إلى الملك بلدوين للتفاوض معه من أجل الأمان، فأمنهم بلدوين على أنفسهم وأموالهم وعساكرهم، وترك لهم حرية الاختيار أما البقاء بصيدا آمنين وأما المسير إلى أي مكان يرغبونه دون أن يمنعهم أحد، «وحلف لهم على ذلك»[47] ثم سلمت المدينة للصليبيين في 20 جمادى الأولى 504هـ/ 4 ديسمبر 1110م، وخرج الأهالي في جماعات غفيرة إلى دمشق وبقي فيها من أراد البقاء.

ولعله يتضح مما تقدم لنا أنه بفضل قوة شخصية قاضي صيدا وحكمته هو وشيوخ المدينة الذين خرجوا معه للاتفاق والتفاوض مع بلدوين ملك بيت المقدس، استطاعوا حقن دماء المسلمين بالمدينة وإقناع بلدوين بإعطاء الأمان لأهلها على أموالهم وأنفسهم وعساكرهم، وهذا في حد ذاته يعتبر نصراً سياسياً خاصة وأن المدينة كانت ستسقط بأيدي الصليبيين بلا أدنى شك. ومن خلال هذا العمل السياسي الذي قام به قاضي صيدا نكون قد تعرفنا على مجال جديد من المجالات التي شارك فيها القضاة في هذه الفترة، ألا وهو التفاوض مع الصليبيين حقناً لدماء المسلمين.

ومما هو جدير بالذكر في هذا المجال أن المؤرخ ابن كثير قد انفرد بذكر حادثة توضح مدى شعور الفقهاء بمسؤوليتهم في الجهاد في سبيل الله ضد أعداء الإسلام والمسلمين واستجابة لأمر الله في ذلك وفي أي مكان من أرض الإسلام. فيذكر ضمن أحداث سنة 504هـ: «في أولها تجهز جماعة من البغاددة من الفقهاء وغيرهم، ومنهم ابن الزاغوني[48] للخروج إلى الشام

(47) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 171، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 139، المقريزي: المصدر السابق، ج 3، ص 46، رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 150 ـ 151.

(48) هو علي بن عبيد الله بن السري بن الزاغوني البغدادي الفقيه المحدث الواعظ =

لأجل الجهاد وقتال الفرنج، وذلك حين بلغهم أنهم فتحوا مدائن عديدة، من ذلك مدينة صيدا.. وكذا غيرها من المدائن. ثم رجع كثير منهم حين بلغهم كثرة الفرنج»[49]. وهذه الرواية إنما تدل دلالة صريحة على تجهز الفقهاء بالسلاح للجهاد بأنفسهم في سبيل الدفاع عن بلاد الشام، وخروجهم بالفعل من بغداد في طريقهم إلى بلاد الشام، ولكن مجرد أن علموا بكثرة أعداد الصليبيين وأنهم لا قبل لهم بتلك الأعداد الهائلة، اضطر بعضهم للرجوع إلى بغداد في الوقت الذي واصل فيه البعض الآخر منهم المسيرة نحو بلاد الشام غير آبه بقوة الأعداء وكثرتهم، واضعين نصب أعينهم النصر أو الشهادة. ولا شك أن مثل هذه المحاولة التي قام بها رجال الدين بوجه عام والفقهاء في بغداد بوجه خاص، تعتبر بادرة لحركة البعث الإسلامي للجهاد ضد الصليبيين التي اكتملت بعد ذلك بهدف توحيد الجبهة الإسلامية في المنطقة للوقوف صفاً واحداً في وجه العدو الصليبي وطرده من بلاد المسلمين.

ومن الأعمال الإيجابية ذات التأثير الفعال في مجال الجهاد تلك التي قام بها أحد المنتمين إلى طبقة العلماء أثناء حصار الصليبيين لميناء صور الإسلامي سنة 505هـ/ 1111م، فلقد امتنعت صور على الصليبيين فترة طويلة من الزمن، وباءت كل محاولاتهم لاحتلالها بالفشل، وكان ذلك بفضل موقعها الممتاز من ناحية ولاهتمام الفاطميين بتزويدها بالإمدادات من حين لآخر من ناحية أخرى مما مكنها من الصمود في وجههم. وفي سنة 505هـ قام الصليبيون بمهاجمتها وأقاموا عليها ثلاثة أبراج خشبية عالية وبكل برج

= أبو الحسن. أحد أعيان مذهب الحنابلة، كان متفنناً في علوم شتى، من الأصول والفروع والحديث والوعظ وصنف في ذلك كله، وكان له في كل فن من العلم حظ وافر، ووعظ مدة طويلة. وقد ولد سنة 455هـ وتوفي سنة 527هـ. انظر ترجمته في: ابن رجب: المصدر السابق، ج 1، ص 180، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 4، ص 80، الزركلي: المرجع السابق، ج 4، ص 310، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 272، ابن كثير المصدر السابق، ج 12، ص 220.

(49) ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 184.

ألف رجل، وألصقوا أحدها بالسور. فاجتمع النائب الفاطمي المتولي لأمر صور بأهل البلدة للتشاور في كيفية دفع هذه الأبراج عن المدينة، فقام شيخ[50] من أهل طرابلس وتعهد على نفسه إحراقها، وأخذ معه ألف رجل بالسلاح التام يحمل كل منهم حزمة حطب وأخذوا يقاتلون الفرنج إلى أن وصلوا البرج الملحق بالمدينة فألقى الحطب من جميع جهاته وأشعل فيه النار، ولكنه خاف أن يشتغل الفرنج الذين في البرج بإطفاء النار وتفشل خطته في إنقاذ المدينة من الحصار فرماهم بجرب كان قد أعدها مملوءة من العذرة[51]، فلما سقطت عليهم اشتعلوا بها وبما نالهم من سوء الرائحة والتلويث، فتمكنت النار من البرج وهلك كل من فيه إلا القليل، وأخذ منه المسلمون ما قدروا عليه بالكلاليب ثم أخذ سلال العنب الكبار وترك فيها الحطب الذي قد سقاه بالنفط والزفت والكتان والكبريت، ورماهم بسبعين سلة وأحرق البرجين الآخرين[52].

وقد نتج عن هذه الخطة الناجحة التي قام بها هذا الشيخ ارتفاع الروح المعنوية مرة ثانية لدى أهل صور، فقاتلوا قتال من يئس من الحياة. وأمام شجاعة المجاهدين في صور وصمودهم اضطر الملك بلدوين ومن معه إلى

---

(50) الشيخ من ألقاب العلماء والصلحاء، وأصله في اللغة: الطاعن في السن، ولقب به أهل العلم والصلاح توقيراً لهم كما يوقر الشيخ الكبير، والشيخي نسبة إليه للمبالغة. انظر القلقشندي: المصدر السابق، ج 6، ص 17، ويذكر التهانوي أن المحدثين يطلقون الشيخ على من يروى عنه للحديث، والمحدث هو الأستاذ الكامل وكذا الشيخ والإمام، وقيل الشيخ هو الذي يقرر الدين والشريعة في قلوب طلاب العلم والناشئة. انظر: التهانوي: المصدر السابق، ج 1، ص 735 ـ 736، وانظر كذلك: حسن الباشا: المرجع السابق، ص 364، حيث يذكر أن الشيخ يطلق على بعض كبار العلماء وعلى الوزراء ورجال الكتابة والمحتسبين.

(51) العذرة: الغائط الذي هو السلح انظر: ابن منظور، المصدر السابق تحت مادة (ع.ذ.ر.ة)، ص 720 ـ 721.

(52) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 179 ـ 180، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 144 ـ 145، المقريزي: المصدر السابق، ج 3، ص 48. انظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 152.

الرحيل عنها[53]. وعلى الرغم من أننا لم نعثر على اسم هذا الشيخ في أي من المصادر التي بين أيدينا، فإن ما فعله من الخير دليل على مدى المساهمات الفعالة التي كان يقوم بها العلماء والفقهاء في جهاد الصليبيين في تلك الفترة.

وكان للعلماء وللفقهاء أيضاً وقفة طويلة تجاه تحالف بعض الحكام المسلمين مع الصليبيين، ويظهر ذلك جلياً في سنة 504هـ/ 1110م عندما لعبوا دوراً خطيراً في دفع الرأي العام الإسلامي للجهاد ضد الصليبيين، خاصة بعد أن عاث الصليبيون فساداً ونكلوا بالمسلمين وقتلوا الأبرياء في مدن كثيرة من أعمال حلب مثل الأثارب وزردنا وغيرهما. لذلك خاف المسلمون بحلب من هذا الوضع، خاصة عندما وجدوا استكانة حاكمها الملك رضوان بن تتش إزاء تصرفات الصليبيين وانقياده لتنكرد حاكم أنطاكية[54]، بل لقد وصل به الأمر إلى أنه «صالحهم على اثنين وثلاثين ألف دينار وغيرها من الخيول والثياب»[55]. فضاقت صدور أهل حلب لما يحدث حولهم، فخرجت جماعة منهم صوب بغداد مستنفرين على الصليبيين ومستنكرين تحالف الملك رضوان مع تنكرد الصليبي صاحب أنطاكية. ولما وصلوا كان أول من استجاب لمصابهم جماعة كثيرة من فقهاء المدينة فانضموا إليهم مع كثير من أهل بغداد، وقصدوا جميعاً جامع السلطان

---

(53) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 179 ـ 180، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 144 ـ 145، المقريزي: المصدر السابق، ج 3، ص 49، العيني: المصدر السابق، ج 17، ورقة 49، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 5، ص 181 ـ 182. انظر أيضاً:
Albert d'Aix, CF. BIB. des Crois, t. 1. p. 80.

(54) بعد أن توفي بوهيمند صاحب أنطاكية عام 1110م خلفه في حكم الإمارة ابن أخيه تنكرد أمير الجليل، وكان هذا الأمير يتولى حكم إمارة أنطاكية بالنيابة عن عمه طوال مدة عامين أثناء غيابه في الأسر لدى المسلمين. وقد مات في 8 جمادى الآخرة 506هـ/ 12 ديسمبر 1112م. انظر:
Du cange, Op. Cite. pp. 180-181.

(55) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 140 ـ 141، العظيمي: المصدر السابق، ص 380. انظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 196 ـ 197.

وتجمعوا به بهدف إثارة الرأي العام الإسلامي للنهوض والجهاد ضد الصليبيين، ولدفع أولي الأمر وخاصة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي للتحرك السريع لنجدة حلب. كما قام هؤلاء الفقهاء أيضاً ومعهم جماعة المستنفرين من أهل حلب والعامة من أهل بغداد في أول جمعة من شهر شعبان من نفس العام/ مارس 1111م بالاستغاثة بهذا الجامع وأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه وصاحوا وبكوا لما لحق بالإسلام من الفرنج من قتل الرجال وسبي النساء والأطفال، ومنع الناس من الصلاة[56]. وقد نتج عن ذلك رد فعل قوي لدى السلطان محمد بن ملكشاه فوعدهم بإنفاذ العساكر والانتصار للإسلام من الصليبيين. فلما حضرت الجمعة الثانية ووجد هؤلاء الفقهاء والعلماء وبقية المستنفرين أن السلطان والخليفة لم يتخذا أية خطوة إيجابية لنجدة حلب، قصدوا جامع القصر بدار الخلافة في بغداد وكسروا شباك المقصورة والمنبر، وبطلت الجمعة أيضاً[57]. ثم أخذ هذا الحشد الكبير ينادي السلطان قائلاً: «أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام حتى أرسل إليك في جهادهم؟»[58]. وكانوا يقصدون ذلك التصرف الذي سلكه الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين (474 ـ 512هـ/ 1081 ـ 1118م) قبل وصولهم بغداد عندما أرسل إلى السلطان السلجوقي يحرضه على مهاجمة الصليبيين وقتالهم وردهم عن بلاد المسلمين[59]. والحقيقة أن الامبراطور البيزنطي لم يكن مدفوعاً إلى ذلك التصرف حباً في الإسلام والمسلمين وإنما لحقده على الصليبيين الذين نقضوا وعدهم له بتسليمه البلاد التي يستولون عليها في الشرق.

وإزاء هذا الموقف تحرج الخليفة العباسي من غضبة المسلمين وأرسل

(56) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 173، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 157.

(57) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 141، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 173، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 158.

(58) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 141.

(59) رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 196 ـ 197.

إلى السلطان يأمره باتخاذ خطوات سريعة قبل استفحال الأمر، فأصدر السلطان السلجوقي عندئذ أوامره للأمراء التابعين له بالتجهز للجهاد[60]. كما قام بتسيير ولده مسعود مع الأمير مودود صاحب الموصل في سنة 505هـ/ 1111م على رأس جيش كبير لقتال الصليبيين، على أن يلحق بهما بقية الأمراء بجيوشهم. غير أنه لما اقتربت هذه الجيوش من حلب أغلق رضوان ابن تتش أبواب المدينة أمامهم وقام بمحالفة تنكرد صاحب أنطاكية وجماعة من إسماعيلية الشام لتأييده في الوقوف ضدهم، لاعتقاده أنهم أخطر عليه من الصليبيين أنفسهم[61].

وعلى الرغم من ذلك الموقف الحماسي الذي وقفه العلماء والفقهاء من تحالف رضوان صاحب حلب مع الصليبيين، ومن تثاقل أولي الأمر في بغداد عن الخفوف للجهاد لانقاذ حلب من السقوط في أيدي الصليبيين. فإن المصادر قد سكتت تماماً عن ذكر أية أخبار تتعلق بموقف هذه الصفوة المختارة من تحالف طغتكين أتابك دمشق مع الصليبيين عام 509هـ/ 1115م للوقوف معاً ضد السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه، هذا السلطان الذي أدرك أن نجاحه في طرد الصليبيين من بلاد الشام متوقف على فرض سيطرته على سائر أمراء المسلمين بالشام الحريصين على بقائهم أكثر من حرصهم على الانضمام لأي من القوات الإسلامية التي تزعمت حركة الجهاد ضد الصليبيين. فضلاً عما كان يعاني منه الناس في بلاد الشام من جراء ازدياد نفوذ وقوة إسماعيلية الشام وقتلهم لقادة حركة الجهاد ورواد الوحدة

(60) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 174، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 141، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 153.

(61) العظيمي: المصدر السابق، ص 381، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 173 ـ 175، ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 17 ـ 18. انظر أيضاً: سعيد عاشور: المرجع السابق، ج 1، ص 461 ـ 463، أسامة زيد: الصليبيون وإسماعيلية الشام، ص 140. ومن المراجع الأجنبية راجع:

Stevenson: Op. Cit., pp. 90-91.

الإسلامية الواحد تلو الآخر بدءاً من مودود عام 507هـ/ 1113م، وذلك بسبب استنادهم لتشجيع رضوان وتأييده لهم لاستخدامهم لتحقيق أغراضه الشخصية، هذا إلى جانب أن بلاد الشام كانت مسرحاً كبيراً للصراع المذهبي بين الفاطميين الشيعة وبين السلاجقة السنيين ونوابهم في بلاد الشام بوصفهم ممثلين للخلافة العباسية السنية في بغداد.. كل هذا جعل بلاد الشام حجر عثرة في طريق الجهاد ووحدة الصف(62).

لذلك أرسل السلطان محمد بن ملكشاه حملة لغرض السيطرة على سائر الأمراء المسلمين بالشام، وذلك سنة 509هـ/ 1115م، فلما بلغت هذه الأخبار أسماع الأمراء المسلمين بالشام ارتاعوا منها فتحالف ايلغازي صاحب ماردين مع طغتكين صاحب دمشق لمواجهة هذا الخطر السلجوقي، ثم انضم إليهما فيما بعد متولي حلب الطواشي لؤلؤ، وقاموا بمحالفة كل من روجر أمير أنطاكية وبلدوين الأول ملك بيت المقدس وبونز أمير طرابلس(63). وقامت معركة عنيفة بين قوات السلطان السلجوقي بقيادة برسيق بن برسق وبين الصليبيين وحلفائهم من المسلمين من جانب آخر عند دانيث، أسفرت عن هزيمة ساحقة لقوات برسق في 20 ربيع الآخر 510هـ/ 14 ديسمبر 1115م، وذلك بسبب افتقار المسلمين للوحدة والتماسك مما أضعف قوتهم أمام الصليبيين(64). وجدير بالذكر أن تحالف طغتكين مع الصليبيين لم يكن

(62) حسن حبشي: المرجع السابق، ص 2، أسامة زيد: المرجع السابق، ص 134 ـ 135.

(63) ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 158، أسامة بن منقذ: المصدر السابق، ص 73، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 173 ـ 175، رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 212 ـ 214. انظر أيضاً:
Gauthier le Chancelier: Op. Cit., t. 1, pp. 105-109, Grousset: Op. Cit., t. 1. p. 278.

(64) العظيمي: المصدر السابق، ص 383، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 159، أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص 75 ـ 76، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 174 ـ 176. وانظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 214 ـ 216، أرنست باركر: المرجع السابق، ص 49، سعيد عاشور: المرجع السابق، ج 1، ص 324 ـ 325. انظر أيضاً: Gauthier le Chancelier: Op. Cit., t. 1, pp. 110-111.

الهدف منه على الاطلاق إضعاف جانب المسلمين وإنما الاحتماء بهم من جيوش السلطان السلجوقي وخوفاً على ملكه ومركزه بدمشق[65].

وإذا عقدنا مقارنة بين موقف العلماء والفقهاء في كلتا الحالتين، نجد أن ثورة الرأي العام الإسلامي بقيادة الفقهاء ضد رضوان كان مبعثها أن هذا التحالف لم يكن له مبررات مقنعة، فالصليبيون عاثوا في البلاد التابعة لإمارة حلب فساداً وقتلاً في المسلمين، ولم يبد رضوان أي تحرك إيجابي إزاء تلك الحوادث المفزعة، كما أن الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي لم يتحركا لنصرة وإنقاذ أهل حلب من هذا الاعتداء الغاشم الذي وقع عليهم. لذلك كانت هبة رجال الدين وإثارتهم للرأي العام الإسلامي لاستنكار هذا التحالف واستنفار أولي الأمر للجهاد، أن واجب عامة المسلمين تحريض أولي الأمر على الجهاد إن هم أحجموا عنه وأظهروا الخذلان، فإن خالف ولي أمر المسلمين الأمة الإسلامية في هذا فإنه يفقد طاعتهم وواجبهم إقامة رجل آخر ينتصب للجهاد.. كما ذكر ابن كثير[66].

وأما موقف الفقهاء من طغتكين وتحالفه مع الصليبيين فلعل سبب سكوت المصادر التاريخية المعاصرة والمتأخرة زمنياً للفترة ـ موضوع البحث ـ عن ذكر رد فعل هذا التحالف على رجال الدين من فقهاء وعلماء، يرجع إلى تقديرهم لموقف طغتكين ومنحهم إياه المبررات التي استوجبت هذا التحالف مع الصليبيين، وهي خوفه على سلطته ومركزه في دمشق، خاصة بعد أن سقطت حماة التي كانت تابعة له بيد برسق وجيوش السلطان السلجوقي.

ومن ناحية أخرى يبدو أن وجود الجيوش السلطانية بقيادة برسق في بلاد الشام كان مدعاة لاطمئنان الفقهاء لاستجابة أولي الأمر في بغداد ضد

(65) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 154.

(66) محمد نعيم ياسين: المرجع السابق، ص 198 ـ 208.

الصليبيين منذ استنفارهم سنة 504هـ/ 1110م، وجعلهم يشعرون بعدم خطورة هذا التحالف، وشعروا أنه سيتفكك بعد وقت قصير. وهذا هو ما حدث فعلاً، إذ لم يلبث أن تفكك هذا التحالف وندم طغتكين على ما فعله، وتوجه إلى بغداد طالباً الصفح والعفو من الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، فصفحاً عنه وكان ذلك في سنة 509هـ/ 1115م[67].

وهكذا لم يقتصر دور الفقهاء والعلماء في هذه الفترة الزمنية على الوعظ والإرشاد والحث على الجهاد ومحاولاتهم الدائمة لتوحيد كلمة المسلمين للوقوف صفاً واحداً في وجه الزحف الصليبي لحماية الإسلام والمسلمين، بل نجد أنهم حملوا السلاح واشتركوا في معارك الجهاد ضد الصليبيين، كما وقع على عاتق البعض منهم مهمة تنظيم وإدارة وحكم بعض المدن الهامة في بلاد الشام في هذه الفترة الحرجة وفق ما اتضح في الصفحات السابقة. ولعل ما جاء من توافق كل هذه المزايا في شخصية أبي الفضل بن الخشاب قاضي حلب[68] قد جعله رائداً من رواد وفقهاء عصره ضد الصليبيين.

وكان لحلب أهمية كبرى بسبب مركزها الاستراتيجي الهام الواقع بين إمارتي الرها وأنطاكية الصليبيتين، مما جعلها مطمعاً للصليبيين دائماً، يسعون جاهدين للاستيلاء عليها من حين لآخر لتأمين إماراتهم الصليبية. وأما أهميتها للمسلمين فكانت عظيمة بالنسبة لأية قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمواجهة الصليبيين، وعن طريقها يمكن ضرب كل من إمارتي الرها وأنطاكية الصليبيتين، كما يمكن الاتصال عن طريقها بالقوى الإسلامية التركمانية

(67) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 193 ـ 197، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 161، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 6، ص 487، رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 216.

(68) لم نعثر في كتب التراجم أو غيرها من المصادر الإسلامية المعاصرة للفترة موضوع البحث أو المتأخرة عنها زمنياً ما يوضح لنا اسمه بالكامل أو شيء عن مولده أو دراسته أو عن سيرته الذاتية.

الموجودة في منطقة الجزيرة. لهذا كان الاستيلاء عليها بمثابة فتح الطريق لقيادة حركة الجهاد، ومن أجل ذلك سعى كثير من القادة المسلمين لضمها إلى جانبهم حتى تتشكل الجبهة الإسلامية لمواجهة الصليبيين.

ونتيجة لهذه الأوضاع المتردية في حلب أثناء حكم أبي المعالي بن الملحى الدمشقي عام 511هـ/ 1117م وما ترتب على ذلك من قيام أهل المدينة بعزله ومصادرته، أن قويت أطماع الصليبيين في الاستيلاء عليها وسط هذه الظروف، فأغاروا عليها وأخذوا مالاً لا يحصيه إلا الله دون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها، وأصبحت الحالة الاقتصادية في حلب عندئذ سيئة للغاية، وقلت الأقوات بها كثيراً مما أرجف قلوب أهلها خشية أن تسقط البلدة بأيدي الصليبيين[69]. ولما يئس أهل حلب من أية مساعدة تصلهم، اجتمع أهل الحل والعقد من الأعيان والمقدمين بها واتفقوا على استدعاء إيلغازي بن آرتق حاكم ماردين بجيشه للتصدي للصليبيين ودفعهم عنها. ولما وصل إيلغازي إلى حلب في مجموعة قليلة من جنده، اختلفت آراء أعيانها حول دخوله المدينة من عدمه لأنهم كانوا يتوقعون من إيلغازي أن يصلهم في عسكر حتى يضمن لهم النصر ويفرج عنهم كربهم، ولكن لما خاب أملهم فيه منعوه من دخول المدينة حتى اضطر إيلغازي للعودة عن حلب[70]. وعندئذ قام القاضي أبو الفضل بن الخشاب الذي كان مسؤولاً عن حفظ المدينة والنظر في مصالحها، وأخذ معه جماعة من المقدمين ولحق بإيلغازي في طريق عودته، واستطاع أن يوضح له وجهة نظر أهل حلب حتى أقنعه وعاد به إليها ودخلها وتسلمها في سنة 511هـ/ 1117م، وهادن الصليبيين فترة وجيزة حتى يتمم استعداداته الحربية. وظل القاضي أبو الفضل بن الخشاب

(69) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 199، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 171، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 181.

(70) العظيمي: المصدر السابق، ص 386، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 199، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 171، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 185.

يقوم بحث الأهالي على ضرورة الصمود ومواجهة الفرنج بشدة وعنف طوال فترة غياب إيلغازي في ماردين لجمع بقية عساكره. ولكن الصليبيين لم يلتزموا بالهدنة وأخذوا يغيرون على حلب سنة 513هـ/ 1119م، فأرسل أهلها إلى إيلغازي يستعجلونه في الوصول إليهم بالعسكر لصد الصليبيين، وكان روجر صاحب أنطاكية في ذلك الوقت قد جمع عسكراً كثيراً من الفرنج والأرمن وخرج بهم إلى منطقة شمال الأثارب يقال لها البلاط[71]، وعندئذ كان إيلغازي قد وصل بحشوده وأراد أن ينتظر حتى يصل إليه أتابك طغتكين بعسكره فيهاجما العدو معاً، ولكن عسكر إيلغازي قد حثوه على أن يبادر بمهاجمة الصليبيين دون انتظار طغتكين، فوافقهم الرأي وقام بتجديد الأيمان على الأمراء والمقدمين أن يناصحوا في حربهم، ويصابروا في قتال العدو وأنهم لا ينكلون ويبذلون مهجهم في الجهاد، فحلفوا على ذلك بنفوس طيبة[72]. ثم خرج على رأس جيشه وفاجأ الصليبيين، وكان القاضي أبو الفضل بن الخشاب حاملاً سلاحه ومنضماً بين صفوف هؤلاء المجاهدين، وكان يمشي بينهم هنا وهناك ليحرضهم على القتال وهو راكب على حجر[73] وبيده رمح[74]. فلما رأى بعض العسكر من التركمان تقدم ابن الخشاب وقيادته وبروز شخصيته بين الصفوف، تعجبوا من حماسته وأظهروا ازدراءهم قائلين: «إنما جئنا من بلادنا تبعاً لهذا المعمم!»، فأحس القاضي ابن الخشاب بما في نفوسهم وخطب فيهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم

(71) البلاط: مدينة عتيقة بين مرعش وأنطاكية. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 1، ص 477.

(72) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 200 ـ 201، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 187 ـ 188. انظر أيضاً: عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في بلاد الشام والجزيرة، بيروت، 1977م، ص 234 ـ 237.

(73) حجر: الفرس الأنثى وهي ما يتخذ منها للنسل. لم يدخلوا فيها الهاء لأنه اسم لا يشركها فيه المذكر. انظر: ابن منظور: المصدر السابق، مادة (ح.ج.ر)، ص 573.

(74) ابن العديم، المصدر السابق، ج 2، ص 188 ـ 189.

واسترهف هممهم بين الصفين، فأبكى الناس وعظم في أعينهم[75].

وكانت نتيجة هذه الخطبة البليغة التي ألقاها ابن الخشاب والتي من المؤكد أنه استعان فيها بآيات الله تعالى الحاثة على الجهاد وبأحاديث الرسول الكريم ﷺ، مرغباً لهم في المصابرة على الجهاد ومبيناً فضل الجهاد وما ينتظر المجاهدين من جزاء عند الله في الدنيا والآخرة.. أن اندفع المسلمون في يوم الجمعة 16 ربيع الأول 513هـ/ 28 يونيو 1119م بكل قواهم يقاتلون الصليبيين في معركة عنيفة انتهت بنصرة المسلمين وبقتل صاحب أنطاكية روجر ومعظم أفراد قواته، واشتهرت تلك المعركة عند الصليبيين وأطلقوا عليها معركة ساحة الدم لكثرة من قتل فيها منهم[76].

وكان للقاضي ابن الخشاب موقف آخر في سنة 518هـ/ 1124م عندما عاود الصليبيون هجومهم على حلب بقيادة جوسلين صاحب الرها وعاثوا فيها قتلاً ونهباً ونبشوا القبور والأضرحة وأضرموا النيران في الأضرحة انتقاماً من المسلمين ومن مقاومتهم الشديدة، فتصدى القاضي ابن الخشاب عندئذ لهذا الموقف وقام بمشاورة أعيان حلب في عمل يردون به على ما فعله الصليبيون إزاء حلب، وانتهى الرأي باقناعهم بهدم محاريب الكنائس التي للنصارى بحلب، وأن يعمل لها محاريب إلى جهة القبلة وتغير أبوابها وتتخذ

---

(75) ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 188 ـ 189. وما يؤسف له أن المصادر لم تأت بمضمون هذه الخطبة أو نصها.

(76) العظيمي: المصدر السابق، ص 386 ـ 387، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 201، أسامة بن منقذ: المصدر السابق، ص 118 ـ 119، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 185 ـ 186، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 188 ـ 191، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 6، ص 485. ولمزيد من التفاصيل عن هذه المعركة انظر:

William of Tyre: Op. Cit., t. 1, p. 523, Mattew d'Edess: Extraits de La Chronique de Mattew d'Edess, ed. R.H.C. Doc-Arm. t. 1, Paris, 1869, pp. 122-123, Anonymos, Hestoire de Jerusalem et d'Antioch CF. R.H.C.H., OCC, Paris, 1869, t. V. p. 645, Gautheir le Chancelier: Op. Cit., t. 1, pp. 111-118.

مساجداً[77]. وقد قام الأهالي بالفعل بهدم الكنيسة الكبرى للنصارى بحلب وحولوها إلى مسجد، كما فعلوا كذلك بباقي الكنائس الأخرى، ولم يتركوا للنصارى بحلب سوى كنيستين فقط[78].

ومما تقدم يتضح لنا مدى قوة ونفوذ القاضي ابن الخشاب وما كان يتمتع به من شخصية مؤثرة في نفوس أهل حلب، مما جعله يسير الأمور بها وينظم شؤونها ويتصرف في كافة الأمور بحكمة بالغة. ولعل مما يؤكد هذا قول ابن العديم: «هذا كله ونور الدولة بلك غائب عن مدينة حلب في بلاده»[79].

وهناك ميدان آخر من ميادين جهاد الفقهاء والعلماء ضد أعداء الدين يتعلق بتعاطف بعض حكام المسلمين في الشام مع طائفة الإسماعيلية، وقد ظهر ذلك بصورة جلية أيام الملك رضوان بن تتش صاحب حلب الذي اتبع سياسة التقرب إلى هذه الطائفة الهدامة من أجل استخدامهم في القضاء على المناوئين له من جيرانه المسلمين، مما أدى إلى تزايد نفوذهم بحلب في عهده حتى صارت لهم دار الدعوة بحلب في أيامه[80]. ولكن نتج عن هذه السياسة التي اتبعها الملك رضوان مع الإسماعيلية نفور جيرانه المسلمين منه، واستنكار أهل حلب بكافة طوائفهم، بما فيهم رجال الدين من علماء وفقهاء، إلا أنهم لم يفصحوا عن مكنون غضبهم واستنكارهم في حياة رضوان، ربما خوفاً منه لأنه كان يحفظ جانب الإسماعيلية، أو لخوفهم من بطش الإسماعيلية أنفسهم بمن يعترض سبيلهم[81]. ولكن لما مات الملك

(77) ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 214 ـ 215. وعن ما فعله الصليبيون أثناء محاصرتهم لحلب سنة 518هـ، انظر ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 211 ـ 212، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 229 ـ 230.

(78) ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 215.

(79) ابن العديم: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(80) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 189، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 145.

(81) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 189 ـ 190، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 161 ـ 162.

رضوان سنة 507هـ/ 1113م وخلفه ولده ألب أرسلان، استجاب لطلب السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه عندما طلب منه محاربتهم والقضاء عليهم، وقام ألب أرسلان بالفعل ومعه طوائف الشعب جميعها في حلب بمطاردتهم وتعقبهم حتى فتكوا بهم وبزعمائهم وبمن دخل في مذهبهم[82].

وعلى الرغم من أن أحداً من المؤرخين لم يذكر صراحة موقف الفقهاء من هذه الأحداث التي جرت ضد جماعة إسماعيلية الشام في عهد ألب أرسلان بن رضوان، إلا أننا لا نشك في اشتراكهم الفعلي في محاربة هذه الجماعة، فلا بد أنهم كانوا منضمين لطوائف الشعب في حلب أثناء هذه الأحداث، ولا بد أن يكونوا بمثابة القوى المحركة لثورة الأهالي والشعلة التي أضاءت لهم الطريق خاصة وأن المصادر قد أشادت صراحة بدورهم في صد طائفة الإسماعيلية في دمشق أيام حاكمها الأمير ظهير الدين طغتكين عندما استفحل أمر الإسماعيلية بدمشق سنة 520هـ/ 1126م وتقربوا من طغتكين حتى تنازل لهم عن ثغر بانياس ليبعدهم عن دمشق وليتقي شرهم، فأصبحت بانياس مركزاً لهم بدلاً من حلب[83]. فاستفحل أمرهم ببانياس وزاد خطرهم. وهنا اشتد الحال على فقهاء مدينة دمشق وعلمائها، وفي ذلك يذكر ابن القلانسي: «وضاقت صدور الفقهاء والمتدينين والعلماء وأهل السنة والمقدمين والستر والسلامة من الأخيار والمؤمنين، وأحجم كل منهم عن الكلام فيهم والشكوى لواحد منهم دفعاً لشرهم وارتقاباً لدائرة السوء عليهم لأنهم شرعوا في قتل من يعاندهم ومعاضدة من يؤازرهم على الضلال

(82) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 189 ـ 190، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 151، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 167 ـ 169، العيني: المصدر السابق، د 20، لوحة 677 ـ 678. انظر أيضاً: أسامة زيد: المرجع السابق، ص 142 ـ 143، ومن المراجع الأجنبية راجع:

Grousset: Op. Cit., t. 1, p. 479.

(83) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 215، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 235 ـ 236، سبط بن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 117 ـ 118. انظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 285 ـ 288.

ويرافدهم بحيث لا ينكر عليهم سلطان ولا وزير، ولا يفل حد شرهم متقدم ولا أمير»[84].

ويتضح هنا مما تقدم في وصف ابن القلانسي الدقيق لموقف الفقهاء والعلماء السبب في وقوفهم مكتوفي الأيدي أمام تحالف طغتكين مع طائفة الإسماعيلية، وهو الخوف من سلطانهم وشرهم. ويؤكد ابن الأثير في تحليله للسبب في موقف رجال الدين هذا الاستنتاج فيذكر: «خوفاً من سلطانهم أولاً ومن شر الإسماعيلية ثانياً، فلم يقدم أحد على إنكار هذه الحال فانتظرا بهم الدوائر»[85].

ومن الأسر التي بلغت شأناً عظيماً في مجالات العلم والفقه والسياسة أبان تلك الفترة الزمانية، الأسرة الشهرزورية التي تنتسب إلى القاسم بن الشهرزوري جد الشهرزوريين[86]. وقد برز دور بعض أبناء تلك الأسرة في فترة حكم عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، واستمروا في أداء دورهم الديني والسياسي خلال العصر الأيوبي.

---

(84) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 215، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 236. انظر أيضاً: أسامة زيد: المرجع السابق، ص 149.

(85) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 236.

(86) هو أبو أحمد القاسم بن المظفر بن علي بن القاسم الشهرزوري، والد قاضي الخافقين أبي بكر محمد، والمرتضى أبي محمد عبد الله، وأبي منصور المظفر. وهو جد بيت الشهرزوري قضاة الشام والموصل والجزيرة وكلهم ينتسبون إليه. وكان من أولاده وحفدته علماء نجباء كرماء نالوا للمراتب العليا، وتقدموا عند الملوك وتحكموا وقضوا ونفقت أسواقهم، خصوصاً حفيده القاضي كمال الدين محمد ومحيي الدين بن كمال الدين، توفي القاسم بالموصل سنة 489هـ/ 1095م. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 4، ص 68 ـ 70.

وشهرزور: هي كورة واسعة في الجبال بين أربل وهمذان، ومعنى شهر بالفارسية المدينة. ويذكر ياقوت أنه: «خرج من هذه الناحية من الأجلة والكبراء والأئمة والعلماء وأعيان القضاة والفقهاء ما يفوق الحصر عده ويعجز عن إحصائه النفس ومده، وحسبك بالقضاة بني الشهرزوري جلالة قدر وعظم بيت وفخامة فعل، ما علمت أن في الإسلام كله ولي من القضاة أكثر من عدتهم في بيتهم». انظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 375 ـ 376.

وكانوا يتمتعون بالبصيرة النافذة وبعد النظر في مواجهة الأخطار التي تهدد الإسلام والمسلمين، فسعوا جاهدين لدى الحكام وأولي الأمر يبصرونهم بما يجب أن يكون عليه الحال، حتى يخلوا ساحتهم ويكونوا قد أدوا واجبهم نحو خالقهم ونحو أمتهم. ولعل خير مثال لذلك ما حدث سنة 521هـ/ 1127م عندما تولى مسعود بن اقسنقر مكانة أبيه في حكم الموصل وكان صغير السن، فتولى الوصاية عليه مملوك لأبيه يدعى جاولي[87] الذي أرسل إلى السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ليقره على تلك الوصاية، وكان رسولاه في هذا الأمر القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن القاسم الشهرزوري[88] والأمير صلاح الدين محمد الياغيسياني، فاجتمعا مع نصير الدين جقر[89] في بغداد وقرروا أن جاولي لا يصلح لحفظ البلاد لأنه كان سيء السيرة[90]. عندئذ أخذ القاضي الشهرزوري على عاتقه حمل الأمانة وقول الحق، فاجتمع هو وصلاح الدين الياغيسياني بوزير السلطان السلجوقي[91] وقالا له: «قد علمت أنت والسلطان السلجوقي أن ديار

(87) كان جاولي بالموصل وهو أمير كبير المنزلة، وهو مستحفظ قلعة الموصل ومتولي أمورها من جهة البرسقي‌لله فطمع في البلاد وحدثته نفسه بتملكها، فأرسل إلى بغداد بهاء الدين أبا الحسن علي بن القاسم الشهرزوري وصلاح الدين محمد اليغيسياني لتقرير قاعدته. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 2، ص 327.

(88) هو القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن القاسم الشهرزوري، توفي يوم السبت 16 رمضان سنة 532هـ بحلب. انظر ترجمته في ابن خلكان: المصدر السابق، ج 2، ص 329، السبكي: المصدر السابق، ج 7، ص 228. ويقول عنه ابن الأثير أنه: «قاضي الممالك الأتابكية، وكان أعظم الناس منزلة عنده ـ أي عند عماد الدين زنكي». انظر: ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 57.

(89) هو أبو سعيد جقر بن يعقوب الهمذاني الملقب نصير الدين، كان نائب عماد الدين زنكي صاحب الجزيرة الفراتية والموصل والشام، أنابه عنه بالموصل. قتل بالموصل سنة 539هـ/ 1144م بتحريض فروخ شاه ابن السلطان محمود السلجوقي المعروف بالخفاجي. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 1، ص 364 ـ 365، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 41.

(90) ابن الأثير: المصدر السابق، ص 34 ـ 35، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 6، ص 500.

(91) هو شرف الدين أنوشروان بن خالد. انظر ابن الأثير: المصدر السابق، ص 35.

الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها وقويت شوكتهم بها واستولوا على أكثرها، وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين»[92].

ويتضح من خلال حديث القاضي بهاء الدين الشهرزوري مبلغ تخوفه من سيطرة الصليبيين على أراضي الإسلام وخشيته من اتساع الرتق باستيلائهم على المزيد منها، وحاجة البلاد إلى الرجل المناسب لوقف التوسع الصليبي والتصدي له. فاستطرد قائلاً: «ولا بد للبلاد من رجل شهم شجاع ذي رأي وتجربة يذب عنها ويحمي حوزتها»[93]. ومن عمق إحساسه بالمسؤولية أمام الله والعباد نراه يقول: «وقد أنهينا الحال إليك لئلا يجري خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين، فنحصل نحن بالإثم من الله واللوم من السلطان»[94].

ولم يكتف القاضي الشهرزوري والياغيسياني بالنصح والإرشاد بل أنهما رشحا لولاية الموصل عماد الدين زنكي، وفي الوقت نفسه بذلا عنه تقرباً إلى خزانة السلطان مالاً جليلاً[95]، فاستجاب لهما السلطان محمود «وولاه البلاد كلها»[96].

واعترافاً من عماد الدين زنكي بما بذله القاضي بهاء الدين الشهرزوري من أجله، ورداً لجميله نحوه عينه قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد[97]. وكذلك زاده أملاكاً وإقطاعاً واحتراماً[98]، وكان يثق فيه وفي آرائه

(92) ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 243، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 30، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 2، ص 238، النويري: المصدر السابق، ج 27، ص 122.

(93) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 243، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 33، النويري: المصدر السابق، ج 27، ص 122.

(94) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 35، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 30.

(95) ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 243 ابن أيبك: المصدر السابق، ج 6، ص 500.

(96) العظيمي: المصدر السابق، ص 399، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 30، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 33.

(97) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 35.

(98) ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 243.

وعلمه. لذلك كانت منزلته عظيمة عنده، وكان عماد الدين يستشيره في معظم الأمور الهامة في دولته حتى صرح ابن الأثير بذلك قائلاً: «وكان لا يصدر إلا عن رأيه»[99].

وهناك أيضاً القاضي كمال الدين الشهرزوري[100]، فقد ظهر نشاطه في الموصل سنة 530هـ/ 1136م في فترة الصراع الذي حدث بين الخليفة الراشد بالله العباسي (526 ـ 532هـ/ 1132 ـ 1138م) والسلطان السلجوقي مسعود بن محمد بن ملكشاه (527 ـ 547هـ/ 1133 ـ 1152م)[101]، بسبب السلطان مسعود لفرض سيطرته على الخليفة الراشد العباسي. فأرسل في سنة 530هـ/ 1136م يطلب من الخليفة استرداد مبلغ أربعمائة ألف دينار كان قد فرضها عليه والده الخليفة المسترشد بالله (512 ـ 529هـ/ 1118 ـ 1135م)، ولكن الراشد قد رفض تسليمه هذا المبلغ وقال: «ليس بيننا وبينكم إلا السيف، فوقع بينهما الخلف»[102]. ثم أمر بقطع الدعوة في الخطبة للسلطان مسعود، وعندئذ سار السلطان مسعود إلى بغداد على رأس جيشه وحاصرها حتى ضاق الأمر على من بها، فاضطر عماد الدين زنكي الذي كان مؤيداً لجيش

---

(99) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 243، النويري: المصدر السابق، ج 27، ص 132.

(100) هو أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله بن أبي أحمد القاسم الشهرزوري الملقب كمال الدين الفقيه الشافعي، ولد سنة 492هـ/ 1198م بالموصل وتولى القضاء بالموصل وبنى بها مدرسة الشافعية ورابط بمدينة الرسول ﷺ، وكان يتردد في الرسائل منها إلى بغداد عن عماد الدين زنكي، ولما قتل عماد الدين على قلعة جعبر كان كمال الدين المذكور حاضراً في العسكر هو وأخوه تاج الدين أبو طاهر يحيى والد القاضي ضياء الدين، فلما رجع العسكر إلى الموصل كانا في صحبته. توفي سنة 572هـ/ 1176م. انظر ترجمته في ابن خلكان: المصدر السابق، ج 4، ص 241 ـ 244، السبكي: المصدر السابق، ج 6، ص 117 ـ 120، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 4، ص 243.

(101) عن هذا الصراع انظر: العظيمي: المصدر السابق، ص 411، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 225.

(102) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 250 ـ 251، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 288، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 250.

الخلافة إلى الانسحاب إلى الموصل ومعه الخليفة العباسي الراشد[103]. مما مهد الطريق لدخول السلطان السلجوقي بغداد في نفس السنة «فأحضر القضاة والشهود والفقهاء، وأثبتوا محضراً شهدوا فيه بوجوب خلع الخليفة الراشد»[104]، ثم قاموا بتولية المقتفي لأمر الله بدلاً منه[105]، وبايعه السلطان والأمراء والقضاة والفقهاء.

فلما علم الخليفة الراشد وهو بالموصل عند عماد الدين زنكي، بمبايعة المقتفي بالخلافة في بغداد، أرسل هو وعماد الدين زنكي رسولين إلى بغداد وكان القاضي كمال الدين بن الشهرزوري مندوباً عن عماد الدين زنكي، فلما وصل القاضي كمال الدين إلى بغداد دخل إلى ديوان الخليفة فطلب منه مبايعة المقتفي ولكنه رفض قائلاً: «إن أمير المؤمنين عندنا بالموصل وقد بايعناه نحن وأنتم والناس قاطبة في شرق الأرض وغربها، وقد علمتم ما قيل في من يبايع آخر»[106]، وأضاف قائلاً: «إن الراشد له في أعناقنا بيعة، ولا يجوز النكث إلا بما يوجب خلعه، وأنا فقيه لا يجوز لي فعل ما ينافي الشرع، فيثبتون ما يوجب خلعه حتى أخلعه وأبايع عني وعن صاحبي (يقصد عماد الدين زنكي)»، فقام الشهود وشهدوا عند القاضي كمال الدين الشهرزوري بما يوجب خلع الراشد. وهنا أعلن موافقته على ذلك وقام الخليفة المقتفي بمنح عماد الدين زنكي بعض المواقع الهامة في العراق من خاص الخليفة، وهذه هي المرة الأولى التي سمح بها لأحد من زعماء الأطراف أن يكون له في العراق أقطاع[107].

---

(103) العظيمي: المصدر السابق، ص 411، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 291 ـ 292.

(104) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 257 ـ 258، ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 53، ابن واصل المصدر السابق، ج 1، ص 67.

(105) انظر ترجمة المقتفي في: ابن دقماق: المصدر السابق، ج 1، ص 207 ـ 209، السيوطي: تاريخ الخلفاء: تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة 1969، ص 437 ـ 442.

(106) ابن الأثير: المصدر السابق، ص 54، ابن واصل: المصدر السابق: ج 1، ص 68 ـ 69.

(107) ابن الأثير: المصدر السابق، ص 54، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 69 ـ 70.

يتضح مما تقدم مكانة القاضي كمال الدين الشهرزوري عند عماد الدين زنكي والثقة الكبيرة التي كان يتمتع بها عنده، فتلك المهمة التي قام بها الشهرزوري كرسول من قبل عماد الدين زنكي إلى كل من الخليفة والسلطان ببغداد تعتبر من المهام الصعبة التي تحملها بعض الفقهاء المتميزين، إلى جانب ما يتحملوه من أعباء أخرى سبق أن ذكرتها، لأن مثل هذه المهمة على الخصوص تقتضي فيمن يقوم بها مواصفات خاصة مثل اللباقة في الحديث والشخصية القوية المؤثرة والحكمة وبعد النظر والحفاظ على الأسرار الهامة. وتلك الصفات كلها اجتمعت في القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، فقد استطاع بما أوتي إليه من هذه الصفات التخلص من الموقف الحرج الذي وضع فيه ببغداد، وأن يكلل مهمته بنجاح كبير وغنم من الموقف باقطاع عظيم لعماد الدين زنكي.

ولا شك أن مثل هذه السفارة وغيرها من السفارات الدبلوماسية الأخرى التي كان يقوم بها بعض الفقهاء والعلماء إنما تعبر عن نوع جديد من جهادهم في سبيل الله، فالوساطة بالصلح بين قطبي العالم الإسلامي أو أية قوتين إسلاميتين لا بد أن يفتح الطريق أمام وحدة الصف الإسلامي وتحد إلى درجة كبيرة من أطماع الصليبيين في استمرار وجودهم في الأراضي المقدسة على حساب تفكك القوى الإسلامية في المنطقة، بعكس الحال إذا ما استمر الصراع بين المتنازعين مما يترتب عليه كثرة انتصارات الفرنج وإحرازهم تقدماً كبيراً في المنطقة.

ومن السفارات الهامة التي اضطلع بها القاضي كمال الدين الشهرزوري تلك السفارة التي توجه فيها من قبل عماد الدين زنكي في سنة 532هـ/ 1138م إلى السلطان مسعود ببغداد كي يستنفره لإرسال نجدة من العسكر السلطاني إلى عماد الدين زنكي لصد الهجوم الذي قام به الامبراطور البيزنطي حنا كومنين (512 ـ 538هـ/ 1118 ـ 1143م) والصليبيون على حلب. فقام القاضي كمال الدين بإبلاغ السلطان بخطورة الموقف، وأوضح له عاقبة

الإهمال والتراخي في هذا الأمر، وخوفه من أنه ليس بينه وبين الروم إلا أن تملك حلب وينحدروا مع الفرات إلى بغداد[108]. فلما وجد القاضي كمال الدين أن السلطان تباطأ في اتخاذ اللازم بشأن تجهيز العسكر للخروج للجهاد، قام بحيلة تدل على ذكاء بالغ وحكمة كبيرة فحرض أحد الفقهاء كان ينوب عنه في القضاء[109] وأمره بجمع الناس أثناء صلاة الجمعة بكل من جامع الخليفة وجامع السلطان ببغداد، وأن يصيحوا بأصوات عالية ويشقوا ثيابهم ويخلعوا عمائمهم ويصيحوا جميعاً بصوت واحد: «وآ اسلاماه وآ دين محمداه»[110]، فقام الناس بذلك ومنعوا الصلاة وخرجوا جميعاً إلى دار السلطان يستغيثون ويبكون. وعندما علم السلطان بذلك أرسل في طلب مقابلة القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، وطلب منه أن يهدىء الناس ويفرقهم ويبلغهم بموافقة السلطنة على تجهيز العسكر للخروج إلى الجهاد، فلما علم الناس بذلك من القاضي تفرقوا. وجهز السلطان العساكر بالفعل ليصحبوا القاضي كمال الدين إلى بلاد الشام، ولكن وصلت الأخبار من عماد الدين بأن الامبراطور البيزنطي قد رحل ولا داعي لوصول العسكر من بغداد، فقام القاضي بابلاغ السلطان بذلك حتى أقنعه بعدم الخروج في ذلك الوقت، فعاد العسكر على الرغم من رغبة السلطان الشديدة في إنفاذ العساكر إلى الشام. ويوضح القاضي كمال الدين في كلامه أن إصرار السلطان على

(108) ابن الأثير: المصدر السابق، ص 62، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 35، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 79، محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية للأمبراطورية البيزنطية في عهد الأمبراطور مانويل الأول، الإسكندرية، 1985م، ص 132 ـ 164. ولمزيد من التفاصيل عن حملة الأمبراطور البيزنطي حنا إلى الشرق، انظر:

Kinnamos, J., Deeds of John and Manuel Comnenus, Translated by Charles M. Brand, New York, 1976, pp. 59-63. William of Tyre: Op. Cit., t. II, pp. 88-90.

وكذلك: رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 340 ـ 349.

(109) أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 35.

(110) ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 303.

ذهاب العسكر إلى الشام كان بقصد أن تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها[111].

ويتضح لنا مما تقدم مدى بعد نظر القاضي كمال الدين الشهزوري وحكمته وفطنته لما يدو حوله، حيث استطاع أن يكشف مكنون نفس السلطان مسعود، وبحسن تصرفه أنقذ عماد الدين زنكي من مأزق خطير كان من الممكن أن يقع فيه إذا وصلت عساكر السلطان إلى الشام في ذلك الوقت بعد رحيل البيزنطيين والصليبيين عن حلب. ويكفي هنا أن نوضح أهمية وجود القاضي كمال الدين في دولة عماد الدين زنكي أن نذكر تعقيب ابن الأثير على ما قام به هذا الفقيه مع السلطان مسعود، إذ يقول: «فانظر إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس، رحم الله الشهيد، فلقد كان ذا همة عالية ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل، ويرغبهم ويخطبهم من البلاد ويوفر لهم العطاء»[112].

ومما يدل على مكانة القاضي كمال الدين عند عماد الدين زنكي ما ذكره أيضاً ابن الأثير من أن أصحاب عماد الدين قالوا له: «إن هذا كمال الدين يحصل له كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار، فقال لهم: بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي؟ إن كمال الدين يقل له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فإن شغلاً واحداً يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار»[113].

ولم يكن تقدير عماد الدين زنكي للفقهاء والعلماء قاصراً على القاضي كمال الدين فحسب دون غيره من الفقهاء الآخرين، وإنما كان هناك أيضاً

---

(111) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 265 ـ 266، ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 63، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 35، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 81 ـ 83، ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ص 108 ـ 109. انظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 348 ـ 349.

(112) ابن الأثير: المصدر السابق، ص 13.

(113) ابن الأثير: المصدر السابق، ص 63.

العديد منهم قد نال حظاً وفيراً من تأييده وعطفه واحترامه، ويأتي في مقدمتهم القاضي تاج الدين أبو طاهر يحيى بن الشهرزوري[114]، وهو أحد أفراد الأسرة الشهرزورية. فقد استطاع هذا العالم أن يحفظ الموصل أثناء جهاد عماد الدين زنكي ضد الصليبيين من أجل فتح البيرة سنة 539هـ/ 1144م، وعندما كانت هذه المدينة قد أوشكت على السقوط في يد عماد الدين زنكي ورد إليه نبأ مقتل نائبه بالموصل نصير الدين جقر، فانزعج كثيراً واضطر عماد الدين إلى الرحيل عن البيرة وأرسل نائباً عنه إلى الموصل لاستطلاع حقيقة الأمر، وهو القاضي تاج الدين بن يحيى بن الشهرزوري الذي كان ملازماً لعماد الدين أثناء محاصرته للبيرة. فلما وصل تاج الدين إلى الموصل علم أن الملك فرخشاه ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه كان وراء مقتل نصير الدين جقر ليملك الموصل في غياب عماد الدين عنها[115]. ولذلك قام القاضي تاج الدين بن الشهرزوري بخدعة كي يفسد على فرخشاه مخططه، فدخل في الدار التي كان يحاصره فيها أصحاب جقر وأصحاب عماد الدين زنكي، وظل يخادعه بمعسول الكلام ويحسن له ما فعله مع جقر ويشجعه على الصعود إلى قلعة الموصل حتى يملكها ويكون في مأمن، حيث يوجد بها الأموال والسلاح فيستطيع بعد ذلك تملك الموصل، فاقتنع الملك فرخشاه وخرج في صحبة القاضي تاج الدين وصعدا معاً إلى القلعة، وهناك قبض عليه وعلى من معه من أتباعه الذي قتلوا نصير الدين جقر، وبعد ذلك توجه القاضي تاج الدين إلى عماد الدين زنكي وبلغه بكل ما فعله، «فسكن جأشه واطمأن قلبه»[116].

---

(114) هو أخو القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، توفي بالموصل سنة 556هـ. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 4، ص 245، السبكي: المصدر السابق، ج 7، ص 333.

(115) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 280 ـ 281، ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 332 ـ 333، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 40 ـ 41، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 95 ـ 96، النويري: المصدر السابق، ج 27، ص 145 ـ 146. انظر أيضاً: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 1، ص 364 ـ 365.

(116) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 72.

ومما تقدم يتضح لنا مدى ما بلغه القاضي تاج الدين من الفطنة وحسن التصرف، مثل باقي أقاربه من بيت الشهرزوري الذين امتلأت بهم دولة عماد الدين زنكي. ولعل أفضل ما قيل في رجال البيت الشهرزوري في دولة زنكي ما قاله ابن الأثير: «وكانت دولة أتابك مملوءة بالرجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة»[117].

ومما يؤثر عن عماد الدين زنكي ومدى اهتمامه بأمر رجال الدين والرجال الذين يجاهدون معه من كافة الفئات بما فيهم العلماء، أنه أصلح الديوان للنظر في مصالح الجند، فكان ديوانه يقاس بديوان السلاطين السلجقية. وفي ذلك يذكر ابنَ الأثير: «كان الإنسان إذا قدم عسكره لم يكن غريباً، فإن كان جندياً اشتمل عليه الأجناد وأضافوه وقاموا بما يحتاج إليه لكثرة أموالهم، وإن كان القادم صاحب ديوان قصد منزلة الديوان فرأى من توفرهم عليه ونظرهم في مصالحه ما يكون كأنه في أهله، وإن كان عالماً فيقصد خيام القضاة بني الشهرزوري وجماعتهم والمتعلقين بهم من قضاة البلاد فيحسنون إليه ويؤنسون غربته فيعود أهلاً. وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العالية والآراء الصَائبة والأنفس الأبية، ويوسع عليهم في أرزاقهم فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف»[118].

وعندما تولى نور الدين محمود (541 ـ 569هـ/ 1146 ـ 1173م) أمر المسلمين في حلب بعد وفاة أبيه عماد الدين زنكي، سار على نهج أبيه في احترامه وتقديره لفقهاء وعلماء عصره فبلغت منزلتهم ومكانتهم درجة عالية القدر، فكانوا يعقدون مجلساً للشورى يحضره معهم نور الدين محمود يتشاورون فيه معه في كل ما يخص شؤون الدولة، وكان نور الدين محمود يحترم آراءهم ولا يقدم على عمل إلا بعد استشارتهم فيه، وكان «يسأل

(117) ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 333.

(118) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 2، ص 83، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 44 ـ 45.

العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة»[119]. فاستمر القاضي كمال الدين الشهرزوري في تأدية واجبه بنفس النشاط الذي كان عليه من قبل، وظلت له المنزلة والمكانة العالية كما كان أيام عماد الدين زنكي. فكان نور الدين محمود يعهد إليه بأموال الأوقاف ولثقته الكبيرة به لم يكن نور الدين يحاسبه على شيء من الوقوف[120].

وكان القاضي كمال الدين ناصحاً أميناً لنور الدين محمود، ففي سنة 566هـ/ 1170م قام نور الدين محمود باعطاء الموصل لابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود، وأعطى سنجار لأخيه الأكبر عماد الدين بن مودود، ولكن القاضي كمال الدين قدم اعتراضه على ذلك التصرف خشية من تفكك وحدة البيت الزنكي وطمع الأعداء فيهم، وقال لنور الدين: «هذا طريق إلى أذى يحصل للبيت الأتابكي لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة أخيه سيف الدين، وسيف الدين هو الملك لا يرى الأغضاء لعماد الدين فيحصل الخلف وتطمع الأعداء»[121].

واستمر القاضي كمال الدين يؤدي ما يناط إليه من أعمال من قبل نور الدين محمود حتى بلغ درجة الوزارة سنة 550هـ/ 1155م، وأصبحت كل أمور الدولة مرجعها إليه[122]. كما كان له قضاء القضاة بدمشق وحمص وحماة وحلب وجميع الشام في أيام نور الدين محمود، وكان إليه أمر المدارس والمساجد والأوقاف والحسبة والأمور الدينية والشرعية، وكان صاحب القلم والسيف[123]. ولما توفي نور الدين محمود وملك صلاح الدين دمشق سنة

(119) أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 14.

(120) ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 281.

(121) شاهنشاه بن أيوب: منتخبات من كتاب التاريخ، القاهرة، 1317هـ، ص 263.

(122) ابن خلكان: المصدر السابق، ج 4، ص 241 ـ 244، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 49 ـ 50.

(123) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 215 ـ 216، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 79 ـ 80.

570هـ/ 1175م، أقره على ما كان عليه وأكرمه واحترمه واستشاره وعظمه[124].

ولقد برز دور العلماء والفقهاء في الجهاد ضد الصليبيين في عهد نور الدين محمود كمدافعين حاملين السلاح للذود عن أمة الإسلام ورفعا لرايته ضد أعداء الدين. وكان منهم الفقيه حجة الدين يوسف الفندلاوي[125]، حيث تألق دور هذا الفقيه أثناء الحملة الصليبية الثانية التي قادها امبراطور ألمانيا كونراد الثالث وملك فرنسا لويس السابع سنة 543هـ/ 1148م إلى بلاد الشام لاسترداد الرها وللقضاء على القوة الزنكية في شمال العراق والشام ولتأمين الأوضاع في امارتي الرها وأنطاكية. فلما وصل قادة هذه الحملة إلى بيت المقدس اجتمعوا وتداولوا الرأي، فاستقر رأيهم على التوجه إلى دمشق واحتلالها[126]، على الرغم من أن صاحبها معين الدين آنر كان حليفاً للصليبيين من قبل ضد عماد الدين زنكي.

فتقدم الصليبيون إلى دمشق وحاصروها فتصدى لهم أهلها وصبروا لهم، واشترك العلماء والفقهاء في القتال، وكان فيمن خرج للقتال الفقيه يوسف الفندلاوي المغربي، فلما رآه معين الدين آنر وهو راجل، قصده وسلم عليه وقال له: يا شيخ أنت معذور لكبر سنك، ونحن نقوم بالذب عن المسلمين. وسأله أن يعود فلم يفعل، وقال له: قد بعت واشترى مني،

---

(124) ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 50.

(125) هو يوسف بن درباس الفندلاوي المغربي، كان شيخاً فقيهاً عالماً زاهداً صالحاً، وهو خطيب بانياس ثم مدرس المالكية بدمشق، وله فتوى الفندلاوي، وكان سنياً كريماً قوي القلب حسن المحاضرة وحسن المفاكهة، استشهد سنة 543هـ ودفن بدمشق بظاهر باب الصغير بالجبل. انظر ابن خلكان: المصدر السابق، ج 2، ص 452، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 4، ص 136.

(126) رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 387 ـ 398، باركر: المرجع السابق، ص 72 ـ 74، حسن حبشي، المرجع السابق، ص 50 ـ 53. انظر أيضاً:

Grousset: Op. Cit., t. II, pp. 243-245.

فوالله لا أقلته ولا أستقلته[127]، يعني قول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[128]. وكان مع الفقيه الفندلاوي الشيخ الزاهد الفقيه عبد الرحمن الحلحولي[129]، وقد قاتلا قتالاً شديداً حتى استشهدا في أرض المعركة[130].

وهكذا استشهد على أبواب دمشق كل من الفقيه الفندلاوي والفقيه الحلحولي مدافعين عنها مع الألوف المؤلفة من المجاهدين الذين قاتلوا وانتصروا في صدهم للصليبيين حتى رجعوا عن دمشق خاسرين.

وهناك موقف آخر من مواقف المشاركة الفعلية في المعارك للعلماء والفقهاء المسلمين أثناء حصار بانياس سنة 552هـ/ 1157م، وذلك عندما صمم نور الدين صاحب الروح المتوثبة لقتال الصليبيين على الأخذ بثأر المسلمين الذين تعرضوا لغارات الصليبيين في سهول بانياس أواخر سنة 551هـ/ 1156م وهم يرعون قطعانهم من الماشية والأغنام، فسطى الصليبيون على القطعان وأسروا الكثير من الرعاة وعادوا بهم إلى بلادهم[131]. ولذلك أمر نور الدين بالتجهز للحرب وإخراج الآلات وتجهيز العساكر للخروج إلى

(127) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 353، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 298، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 52 ـ 53، ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ص 126 ـ 127، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 5، ص 282، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 2، ص 452.

(128) سورة التوبة: آية 111.

(129) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الحلحولي الجعدي، محدث زاهد، ولد بحلب ونشأ بها وسار إلى الآفاق. وكان آخر أمره أنه انقطع بمسجد في ظاهر دمشق. انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 2، ص 290، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 241. مع ملاحظة أن الاسم في ابن كثير محرف إلى الجلجولي وهو خطأ لأن الحلحولي نسبة إلى حلحول وهي قرية بين بيت المقدس وقبر إبراهيم الخليل. انظر: ياقوت: المصدر السابق، ج 2، ص 290.

(130) أسامة بن منقذ: المصدر السابق، ص 94 ـ 95، أبو شامة: المصدر السابق ج 1، ص 52، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 240 ـ 241.

(131) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 337، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 103.

بانياس، وأمر بالنداء في دمشق للغزاة والمجاهدين، «فتبعه من الأحداث والمطوعة[132] والفقهاء والمتدينين خلق كثير»[133].

فنزل بهم نور الدين على بانياس وحاصرها حتى اضطر صاحبها همفري ومن معه من الصليبيين إلى الالتجاء إلى قلعتها، وحاول نور الدين اقتحام القلعة. وعندئذ وصلت بانياس نجدة صليبية من بيت المقدس فاشتبك معها نور الدين ورجاله في معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين وهزيمة اللصليبيين واستيلاء نور الدين على بانياس[134].

وجدير بالذكر أن هناك مواقف عديدة توضح مدى احترام وتقدير نور الدين محمود لرجال الدين من علماء وفقهاء، لعل في مقدمتها ما حدث سنة 558هـ/ 1163م بعد هزيمة نور الدين أمام الصليبيين على حصن الأكراد، فإنه قد صمم على أن يثأر لنفسه وللإسلام من هذه الهزيمة فاحتاج لأموال لاستكمال تجهيز عساكره، فاقترح عليه بعض رجاله أن يجمع ما في بلاده

---

(132) الأحداث مصطلح يطلق على الفرق الحربية حديثة العهد في التكوين، وهي فرق تتكون من المجاهدين الذين ينضمون إلى الجيوش الإسلامية النظامية وجيوش المرتزقة الذين يجمعهم السلطان حسب قدرته المالية لمساعدته في الجهاد والإكثار من عدد جيوشه. وفرق الأحداث تتكون من أفراد تطوعوا بدافع من أنفسهم ومن حميتهم للإسلام للجهاد مع جيوش المسلمين يرجون ثواب الآخرة ورفع راية الإسلام. وكان هؤلاء الأحداث في استطاعتهم العودة إلى أوطانهم في أي وقت يرغبون في ذلك، ومنذ بداية النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، اختفت كلمة الأحداث من المصادر التاريخية وحل محلها كلمة المتطوعين أو المطوعة. والكلمتان تدلان على أن أفراد تلك الفرقة لم يكونوا قوة نظامية، وأغلب المتطوعين من الفقهاء وأصحاب العمائم وأبنائهم، وعرف هؤلاء المتطوعين الأحداث لحداثة عهدهم بالجندية. انظر: نظير حسنا سعداوي: حيش مصر في أيام صلاح الدين، القاهرة، 1959، ص 14 ـ 15.

(133) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 340، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 107، ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ص 105.

(134) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 341 ـ 342، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 108، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 308، رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 552 ـ 553.

من صدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والقراء، لكنه غضب من ذلك ورد قائلاً: «والله إنني لا أرجو النصر إلا بدعاء أولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطيء؟ وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم؟»[135].

وهكذا رفض نور الدين محمود الاستعانة بأموال الفقهاء في تجهيز جيشه، وأرسل إلى حلب ودمشق وأحضر من هناك الأموال والأسلحة والدواب وكل ما يحتاج إليه جنوده[136].

الجدير بالذكر أيضاً أنه أثناء مناقشة نور الدين محمود لأصحابه في موضوع احتياجاته للأموال، تقدم الفقيه برهان الدين البلخي[137] وقال لنور الدين: «أتريدون أن تنصروا وفي عساكركم الخمور والطبول والزمور؟ (كلا والله)». وقد أثرت تلك الكلمات الصادقة التي صدرت من ذلك الفقيه

(135) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 463، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 314، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 128، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 136، ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ص 162.

(136) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 117.

(137) هو الفقيه الإمام برهان الدين أبا الحسن علي بن الحسن البلخي الحنفي، كانت منزلته عالية عند عماد الدين زنكي، وتوسط بين زنكي وأتابكة الشام سنة 531هـ لإقرار الصلح والمهادنة بينهم للحفاظ على وحدة الجبهة الإسلامية، ثم قام بتزويج زنكي من ابنة جناح الدولة حسين سنة 531هـ بعد إتمام هذه المهادنة، ثم تقدم أيضاً عند نور الدين محمود وكان لا يخشى من قول الحق في كل مناسبة. وولاه نور الدين تدريس المدرسة المعروفة بالحلاويين في سنة 543هـ فغير الأذان بحلب ومنع المؤذنين من قولهم (حي على خير العمل) وأعاد الأذان الشرعي، وحذر من لم يؤذن الأذان الشرعي بأنه سيلقى من المنارة على رأسه. انظر: العظيمي: المصدر السابق، ص 412، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 262 ـ 301، العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ج 1، ص 307 ـ 308، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 91، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 293 ـ 294، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 246، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 5، ص 301.

الجليل تأثيراً كبيراً في نور الدين مما جعله يعاهد الله أمام الجميع على التوبة، ثم قام بنزع ثيابه التي كان يلبسها والتزم بلبس الخشن من الثياب، وأبطل جميع المكوس والضرائب من البلاد، وحذر من ارتكاب الفواحش ببلاده، ثم كتب إلى فقهاء البلاد التابعة له يذكرهم ما نال المسلمين من القتل والأسر، ويستمد منهم الدعاء وأن يحثوا المسلمين على الغزاة[138]، ولا يخفى علينا أن ما قاله الفقيه برهان الدين البلخي لنور الدين محمود إنما يعتبر ميداناً جديداً من ميادين الجهاد وهو الجهاد بالكلمة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو في ذلك ينفذ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[139]. لهذا كانت كلمات البلخي أمراً بالمعروف ومقاومة للفساد والباطل. ولم يخف لومة لائم في قوله هذا، وفي هذا المعنى قال رسول الله ﷺ: **«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»**[140].

ومما يبين مدى تأثير رجال الدين من الفقهاء والعلماء على تسيير مجريات الأمور في البلاد خلال هذه الفترة الزمنية وخوف بعض حكام البلاد منهم ومن تأثيرهم على الناس، ذلك الذي حدث سنة 559هـ/ 1163م عندما قصد الصليبيون مصر بعد استنجاد شاور بهم[141]، إذ أراد نور الدين محمود قصد بلادهم حتى يرجعوا عن مصر. فاستعد للجهاد وكاتب الأمراء في البلاد يدعوهم إلى الجهاد معه لفتح حارم، فتأخر فخر الدين قرا أرسلان بن

(138) ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 315.

(139) سورة التوبة: آية 71.

(140) محمد نعيم ياسين: المرجع السابق، ص 173 ـ 180، حيث يورد الأحاديث الشريفة التي تحث على هذا الجهاد، وهو جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(141) انظر ما سبق ص 106 من هذا البحث.

داود الأرتقي صاحب حصن كيفا وصرح بأنه ينوي القعود عن تلبية طلب نور الدين للجهاد. ولكن وجده أصحابه في اليوم التالي يجهز جيشه للخروج للجهاد مع نور الدين قائلاً لهم: (إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا، ويذكرهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة ويدعون علي، فلا بد من إجابة دعوته)[142].

وبالفعل جهز صاحب حصن كيفا جيشه وسار بنفسه للحاق بنور الدين محمود لجهاد الصليبيين معه. ويستوقفنا هنا ما ذكره فخر الدين صاحب حصن كيفا في العبارة السابقة عن مدى خوفه ومهابته من الفقهاء وتأثيرهم في إثارة الرأي العام ضده إذا تقاعس عن الجهاد مع نور الدين محمود ضد الصليبيين، وأنهم يستطيعون إخراج البلاد من يده وتحريض الناس على ترك طاعته. كما أن هذه العبارة السابقة توضح أيضاً مدى تفاعل الفقهاء مع الأحداث الجارية، ومسارعتهم بتلبية نداء الجهاد والدعوة إليه وحث الناس عليه فوراً بمجرد أن وصلهم كتاب نور الدين محمود الذي فعل في نفوسهم فعل السحر.

ويدل هذا القول أيضاً على مدى احترام وتقدير نور الدين محمود لهؤلاء العلماء والفقهاء، فلقد وجه إليهم كتابه مباشرة كي يقوموا بدورهم في تحريض الناس على التطوع للجهاد في سبيل الله جنباً إلى جنب مع الجيش النظامي الذي يخرج مع أمير البلاد.

ومما يؤثر عن نور الدين محمود ومدى اهتمامه بأمر الفقهاء والعلماء ما أفاضت به المصادر من ذكر علاقاته وتقريبه للعلماء والفقهاء ومجالسته

(142) ابن الأثير: المصدر السابق، ص 123، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 318 - 319، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 133، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 143 - 144.

لهم للاستفادة بعلمهم ولاستشارتهم في أمور دولته خاصة فيما يتعلق بالأموال وأوجه التصرف فيها، «فإنه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه في الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين. أحضر العلماء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك، فأخذ ما أفتوه بحله ولم يتعده إلى غيره البتة»[143].

وكان نور الدين يجمع عنده العلماء والفقهاء والمشايخ ويكرمهم ويعظمهم ويتواضع لهم على الرغم من أنه كان مهيباً وقوراً شديد الهيبة في قلوب الأمراء. فإذا دخل أحد من الفقهاء أو المشايخ عنده «كان يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته ويقبل عليه بحديثه»[144]. وكذلك كان «يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام ويجمعهم عند البحث والنظر، فقصدوه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها، وبالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه»[145].

وكان الأمراء النورية يحسدون العلماء والفقهاء على مكانتهم عند نور الدين فكان إذا أعطى أحداً منهم شيئاً مستكثراً يقول لأصحابه: «هؤلاء جند الله، وبدعائهم ننصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حتى أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا»[146]. وكان هؤلاء الأمراء يحاولون أحياناً الإيقاع برجال الدين والعلماء عند نور الدين، فكان

(143) ابن الأثير: المصدر السابق، ص 164، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 5 ـ 6، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 298، ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ص 23 ـ 24.

(144) ابن الأثير: المصدر السابق، ص 171، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 300 ـ 301، ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ص 31.

(145) ابن الأثير: المصدر السابق، ص 171، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 9، ابن كثير: المصدر السابق: ج 12، ص 297.

(146) ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 301.

ينهاهم وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يدافع عنه ويقول لهم من المعصوم؟. ويكفينا هنا أن نذكر رده على بعض أكابر الأمراء عندما حاول النيل من الفقيه قطب الدين النيسابوري[147] عنده، وكان نور الدين قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، فقال نور الدين له: «يا هذا إن ما تقوله فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيك أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها، لو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك»[148].

وقد برزت مكانة وأهمية الدور الذي يقوم به رجال الدين من علماء وفقهاء في بداية تولي صلاح الدين الأيوبي لوزارة الخليفة الفاطمي العاضد في مصر، عقب وفاة عمه أسد الدين شيركوه سنة 564هـ/ 1169م. فبعد أن تولى صلاح الدين الوزارة بتقليد من الخليفة العاضد، اعترض بعض الأمراء النورية الذين طمعوا في الوزارة لأنفسهم على هذا الوضع ورفضوا طاعة صلاح الدين وخدمته[149]. وكادت تحدث فتنة بين قوات نور الدين في مصر لولا الدور الذي قام به الفقيه عيسى الهكاري[150]، فقد أخذ يسعى جاهداً

(147) هو أبو المعالي مسعود بن محمد بن طاهر النيسابوري الفقيه الشافعي الملقب قطب الدين، قدم دمشق سنة 540هـ ووعظ بها وحصل له قبول ودرس بالمدرسة المجاهدية ثم الزاوية الغربية من جامع دمشق، ثم خرج إلى حلب وتولى التدريس مدة في المدرستين اللتين بناهما له نور الدين محمود وأسد الدين شركوه، وكان عالماً صالحاً. توفي في آخر شهر رمضان سنة 578هـ بدمشق. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 5، ص 196 ـ 197، السبكي: المصدر السابق، ج 4، ص 309، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 4، ص 263، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، 334.

(148) ابن الأثير: الكامل، ص 171، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 9.

(149) ابن الأثير: الكامل: ج 10، ص 17، العليمي: المصدر السابق، ج 2، ص 488، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 169، شاهنشاه ابن أيوب: المصدر السابق، ص 260 ـ 261، الحنبلي: المصدر السابق، ص 66 ـ 67، ابن قاضي شهبة: المصدر السابق: ص 180 ـ 181، ابن بهادر: المصدر السابق، لوحة 23 ـ 24.

(150) هو الفقيه ضياء الدين أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى الهكاري، أحد أمراء الدولة الصلاحية الشافعي، المتوفي في 9 ذي القعدة سنة 585هـ وكان كبير القدر وافر الحرمة =

بين هؤلاء الأمراء إلى أن جمعهم حوله بأنواع من الترغيب والترهيب، إلا أن عين الدولة الياروقي فضل العودة إلى الشام لخدمة نور الدين محمود على أن يظل تابعاً لصلاح الدين[151]. وهكذا يتضح هنا الدور العظيم الذي قام به الفقيه عيسى الهكاري في تثبيت دعائم الدولة الأيوبية في مهدها، فقد استطاع بقوة شخصيته وذكائه أن يوطد الأمور لصلاح الدين في بداية توليه حتى يتيح له الفرصة للتفرغ لما هو أهم من هذه الصراعات، ونعني بذلك الجهاد الأعظم ضد الصليبيين.

ولذلك كان صلاح الدين يعتمد عليه في كثير من الأمور حتى أصبح الفقيه عيسى واحداً من كبار الأمراء الصلاحية، وكان صلاح الدين يحترم علمه وعقله وآراءه، ويستشيره كثيراً من أمور الحكم ولم يكن يخرج عن رأيه[152].

وبعد أن استتب الأمر لصلاح الدين وبدأ جهاده في جبهة الشام، شاركه الكثير من المتطوعين من الفقهاء والعلماء، وفي مقدمتهم الفقيه عيسى

= معولاً عليه في الآراء والمشورات. وقام بتدريس الفقه في المدرسة الزجاجية بمدينة حلب، واتصل بالأمير أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين وصار إمامه يصلي به الفرائض الخمس، ولما توجه أسد الدين إلى الديار المصرية وتولى الوزارة كان عيسى في صحبته ولما توفي أسد الدين اتفق الفقيه عيسى المذكور والطواشي بهاء الدين قراقوش على ترتيب السلطان صلاح الدين في الوزارة ودققا الحيلة في ذلك حتى بلغا المقصود. وكان له حظوة عند صلاح الدين يستشيره ويتبع نصحه، وكان كثير الإدلال عليه يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره من الكلام، وكان واسطة بين صلاح الدين والناس بما ينفعهم. انظر: ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 190، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 3، ص 497 ـ 498، السبكي: المصدر السابق، ج 7، ص 255 ـ 256، العليمي: المصدر السابق، ج 2، ص 486 ـ 487.

(151) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص 142، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 160 ـ 161، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 328 ـ 329، المقريزي: المصدر السابق، ج 3، ص 309، الحنبلي: المصدر السابق، ص 67، ابن بهادر: المصدر السابق، لوحة 24.

(152) ابن خلكان: المصدر السابق، ج 3، ص 497، العليمي: المصدر السابق، ج 2، ص 487.

الهكاري الذي شاركه في جهاده ضد الصليبيين مشاركة فعلية وحمل السلاح وقاتل في المعارك مجاهداً في سبيل الله، وكان يلبس زي الأجناد ويعتم بعمائم الفقهاء فيجمع بين اللباسين[153]. وقد أثبتت المصادر الإسلامية هذه المشاركة الفعلية التي قام بها هذا الفقيه في الجهاد، فعندما خرج مع صلاح الدين من مصر سنة 573هـ/ 1177م لمحاربة الصليبيين في عسقلان، قام بالإغارة عليها فقتل الكثير من الصليبيين وأسر الكثير وأحرق ما حولها، ثم واصل صلاح الدين بمن معه إلى الرملة فسبى وغنم ولكن لما تشاغل الجيش بالغنائم وتفرقوا في القرى والمناطق التي حولها وبقي صلاح الدين في طائفة قليلة من جنده، قام الصليبيون فجأة بالهجوم عليهم فارتبك المسلمون وأخذوا يقاتلون الصليبيين، ولكن حلت بهم الهزيمة وقتل منهم أعداداً كثيرة وأسر الكثير منهم، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري وأخيه ظهير الدين ممن وقعوا في الأسر. ويذكر ابن الأثير في هذا المجال أن الفقيه عيسى الهكاري «كان أشد الناس قتالاً ذلك اليوم»[154].

ومما يدل على المكانة العظيمة التي كانت للفقيه عيسى الهكاري عند صلاح الدين الأيوبي، هو ما ذكره المؤرخون من أن صلاح الدين افتداه من الأسر بعد سنتين بمبلغ سنتين ألف دينار[155]، ويضيف المؤرخون بأن صلاح الدين لم يقتصر في فك أسر الفقيه الهكاري على فدائه بالأموال فقط بل أطلق كثيراً من أفراد جماعة الفرسان الداوية[156] ممن كانوا عنده في

(153) ابن الأثير: الكامل، ج 10، ص 190، حيث يذكر في وفاته أنه «كان فقيهاً جندياً شجاعاً كريماً». انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 3، ص 489.

(154) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 85 ـ 86، ابن شداد: المصدر السابق، ص 42 ـ 43، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 273، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 59 ـ 60، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 217.

(155) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 86، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 273، شاهنشاه بن أيوب: المصدر السابق، ص 874، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 225.

(156) هم جماعة دينية حربية مسيحية تعرف عند المؤرخين العرب باسم الداوية أو الديوية، =

الأسر[157]، وهذا يدل على عظم وقدر الفقيه الهكاري لدى صلاح الدين الأيوبي.

وتتوالى الأحداث والمواقف بعد ذلك لتؤكد أهمية ومكانة هذا الفقيه في دولة صلاح الدين الأيوبي، وذلك يتضح عندما أراد صلاح الدين في عام 578هـ/ 1182م أن يحاصر الموصل ويستعيدها من صاحبها الأتابك عز الدين مسعود ويضمها إلى الجبهة الإسلامية ويضمن وقوفها معه ضد الصليبيين في معركته الفاصلة معهم، ولكن بعد مناوشات عديدة بين الطرفين تدخل الخليفة العباسي في الأمر وأرسل صدر الدين شيخ الشيوخ مندوباً عنه للتوسط في الصلح بين الطرفين[158]، فأرسل صدر الدين إلى صلاح الدين يطلب منه إنفاذ بعض ثقاته لحضور مباحثات الصلح بين الطرفين، فتقدم السلطان إلى الأجل القاضي الفاضل[159] وإلى الفقيه عيسى أن يحضرا وأن

= وفرسان المعبد Templiers هم من أصل فرنسي، وقد قام بإنشاء هذه الجماعة عصبة من تسعة من السادة الفرنسيين برئاسة هيو دي بيانز Hugh de Payns، وأوضحوا أن هدفهم هو حماية الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس، وحماية معبد سليمان، فضلاً عن محاربة أعداء المسيح. وأعطاهم الملك بلدوين ملك بيت المقدس منزلاً يقيمون فيه بجوار معبد سليمان، وذلك سنة 512هـ/ 1119م، ولذا فقد لقبوا باسم فرسان المعبد، وانقلبت هذه الجماعة فيما بعد إلى جمعيات سرية اتخذت العسكرية والفروسية صفة تميزها عن غيرها من مختلف الفئات الصليبية، وأصبحت قوى يخشى بأسها في تاريخ الحروب الصليبية. عن هذه الجماعة انظر:
King: Op. Cit., pp. 1-33, Watson: The Story of Jerusalem, London, 1912, p. 183. Addison: The History of Kinghts Templars, London, 1942, pp. 1-15.

(157) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 86، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 273، ج 2، ص 8 ـ 9، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 60، 75 ـ 77، محمد بن شاهنشاه: المصدر السابق، ص 17 ـ 18.

(158) هو صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل شيخ الشيوخ الذي قدم رسولاً على صلاح الدين من بغداد مراراً، وتوفي بالرحبة سنة 580هـ. انظر: أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 56 ـ 57، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 241، شاهنشاه بن أيوب: المصدر السابق، ص 285، محمد بن شاهنشاه: المصدر السابق، ص 200.

(159) هو القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي العسقلاني المولد. ولد في سنة 529هـ بمدينة عسقلان وتوفي سنة 596هـ بالقاهرة، وزر السلطان =

ينهيا إليه ما يسمعانه منه، فمضيا وحضرا عند شيخ الشيوخ[160]، وقام كل من القاضي الفاضل والفقيه عيسى بالتباحث في الأمر نيابة عن صلاح الدين حتى استقر الصلح بين الطرفين، ورحل صلاح الدين عن الموصل وحقنت بذلك دماء المسلمين.

ويتضح من هذا الموقف اعتماد صلاح الدين الأيوبي على الثقات من رجال الدين في دولته أمثال القاضي الفاضل والفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، في المهام الدبلوماسية وللتحدث في الأمور الهامة نيابة عنه، وذلك لثقته في بعد نظرهم وحكمتهم ورأيهم السديد.

كما قام الفقيه عيسى الهكاري في سنة 581هـ/ 1185م بمهمة دبلوماسية أخرى أوفده فيها السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي للتفاوض مع وزير خلاط كنائب عنه، لأنه بعد وفاة شاه أرمن بن سكمان صاحب خلاط تولى مملوكه سيف الدين بكتمر البلاد، فسار نحوه البهلوان أتابك شمس الدين محمد بن ايلدكز صاحب العجم لأخذ خلاط منه، وطمع وزير خلاط أيضاً في الاستيلاء عليها وهو مجد الدين بن الموفق بن رشيق، الذي أرسل إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي طالباً منه التدخل لحسم تلك الأطماع. فبعث السلطان الفقيه عيسى الهكاري في هذه المهمة الدبلوماسية ليمهد الطريق ويناقش الأطراف. وتحدث وزير خلاط مع الفقيه عيسى طالباً منه استعجال السلطان في الوصول قبل وصول البهلوان، وكان السلطان بالفعل قد غادر الموصل في طريقه إلى خلاط. ولما علم البهلوان بتلك التطورات وذلك

= صلاح الدين وبرز في صناعة الإنشاء. وبعد وفاة صلاح الدين استمر على مكانته عند ولده الملك العزيز ثم ابنه الملك المنصور، ولم يزل كذلك حتى وفاته. وبنى في القاهرة مدرسة درس بها وكان يلقب بمجير الدين. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 3، ص 158 ـ 163، السبكي: المصدر السابق، ج 7، ص 166 ـ 168. وسوف نتناول مواقف القاضي الفاضل في الفصل الثالث من هذا البحث.

(160) محمد بن شاهنشاه: المصدر السابق، ص 106 ـ 109، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 114 ـ 115، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 118 ـ 123.

الموقف الحاسم الذي وقفه الفقيه عيسى في مساندة وزير خلاط، ورسالته العاجلة إلى السلطان. داخل البهلوان الخوف وطلب الصلح مع وزير خلاط والعودة إلى بلاده، فتم الصلح انقضى الخلاف، وذلك بحكمة الهكاري الذي نجح في هذه المهمة وفتح أبواب الاستعطاف والاستمالة بين الفئتين[161].

وفي سنة 582هـ/ 1186م قام السلطان صلاح الدين الأيوبي بعدة تعديلات في مصر والشام خاصة بنوابه في البلاد لرغبته في الاطمئنان على مستقبل البلاد بعد وفاته من ناحية، وعدم حدوث خلاف بين أبنائه، بالإضافة إلى تدريبهم على سياسة الملك في حياته وصيانة البلاد من الانشقاق من ناحية أخرى، لا سيما وأنه كان يعد نفسه للدخول في معركة فاصلة من معارك جهاده ضد الصليبيين.

فلما وصلته الأخبار بأن ابن أخيه تقي الدين عمر ـ نائبه في مصر[162] مع ولده الملك الأفضل ـ قد صدرت عنه تصرفات أثناء مرض صلاح الدين بحران تدل على رغبته في الاستبداد بالحكم في مصر، أرسل الفقيه عيسى الهكاري وكان كبير القدر عنده مطاعاً في الجند إلى مصر، وأمره بإخراج تقي الدين منها والمقام بمصر[163]، فأسرع الفقيه عيسى بتلبية الأمر وتوجه إلى مصر ونفذ ما أمر به وظل بها حتى يصل العادل أخو صلاح الدين إليها وبصحبته ولده العزيز عثمان بن صلاح الدين.

وهذا يدل على الثقة الكبيرة التي أولاها صلاح الدين للفقيه عيسى

(161) محمد بن شاهنشاه: المصدر السابق، ص 221 ـ 222، ابن شداد المصدر السابق، ص 55 ـ 56، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 245، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 168 ـ 169.

(162) كان القاضي الفاضل هو الذي أشار على السلطان أن يستنيبه في الديار المصرية بوضع أخيه العادل. انظر: أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 51.

(163) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 139 ـ 140.

الهكاري واطمئنانه إليه خاصة وأنه يعلم مدى تأثير الهكاري في جند مصر.

ومن المواقف الجديرة بالذكر التي قام بها بعض الفقهاء والعلماء في بداية قيام الدولة الأيوبية ما بدر منهم من حرص شديد سنة 569هـ/ 1174م على سلامة وأمن الدولة وعدم تفككها حتى لا يطمع فيها أعداء الإسلام والمسلمين. وكان ذلك عندما قامت جماعة من الشيعة في مصر بمؤامرة تهدف إلى إعادة الخلافة الفاطمية بمصر بعد أن أسقطها صلاح الدين سنة 567هـ/ 1171م، وكانت خطتهم في ذلك أن يستدعوا الصليبيين من صقلية وبلاد الشام إلى مصر لمساعدتهم مقابل أن يمنحوهم شيئاً من المال والبلاد. وكانت خطتهم أنه في الوقت الذي تصل فيه القوات الصليبية ويخرج صلاح الدين بقواته للقائهم يقوم المتآمرون بإشعال نيران الثورة في الداخل فيقع السلطان بين نارين نار ثورة بالداخل ونار وجود الصليبيين خارج البلاد، الأمر الذي يعمل على تشتيت قواته ويساعد على هزيمته أمام الصليبيين من ناحية وسيطرة المتآمرين على مقاليد الحكم من ناحية أخرى. وكان على رأس هؤلاء المتآمرين من الشيعة الفقيه الشاعر عمارة بن أبي الحسن اليمني[164] وعبد الصمد الكاتب والقاضي هبة الله ابن عبد الله العويرس، وغيرهم من جند المصريين ورجالاتهم السودان وحاشية القصر ومعهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده[165].

ولا شك أن هذا المخطط خيانة صريحة من قبل جماعة من مسلمي

(164) هو الفقيه أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد الحكمي اليمني الملقب نجم الدين، كان فقيهاً شافعي المذهب شديد التعصب للسنة، أديباً شاعراً مجيداً ممتعاً، قتل سنة 569هـ. انظر: العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ج 3، ص 103 ـ 141، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 219 ـ 227، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 3، ص 431 ـ 436، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 294 ـ 296، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 70 ـ 71.

(165) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 53 ـ 54، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 243 ـ 244، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 188.

الشيعة الذين استعانوا بالصليبيين لقتال المسلمين من أجل تحقيق المصالح الشخصية، ومن أجل تحطيم دولة صلاح الدين الإسلامية السنية التي تجاهد ضد أعداء الدين، بل لقد بلغت هذه الخيانة حداً كبيراً لدرجة أنهم يغرون الصليبيين بالأموال للقدوم إلى مصر بدلاً من صدهم ومحاربتهم.

ولعل ما يثير الدهشة والعجب من أمر هذه المؤامرة أن يكون بعض قادتها من الفقهاء الذين تناسوا دورهم الرئيسي في الجهاد ضد الصليبيين وانساقوا وراء صراعات مذهبية لا يأتي من ورائها سوى تمزق شمل المسلمين وانهيار الوحدة الإسلامية التي هي أسمى من كل شيء في فترة من الفترات العصيبة التي كانت تمر بالأمة الإسلامية في ذلك الحين.

وقد أراد الله أن يكشف خيوط المؤامرة على يد أحد رجال الدين من الفقهاء المخلصين الواعين والمقدرين للمصلحة الإسلامية الغيورين على تماسك وحدة الجبهة الإسلامية، وهو زين الدين علي. ويذكر ابن الأثير: «وكان من لطف الله بالمسلمين أن الجماعة المصرية أدخلوا معهم زين الدين علي بن نجا، الواعظ والقاضي المعروف بابن نجية[166]، ورتبوا الخليفة والوزير والداعي والقضاة»[167]. فلما ضموا إليهم القاضي ابن نجا وشعر

(166) هو أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا الحنبلي الملقب بزين الدين، ولد بدمشق سنة 508هـ وبعثه نور الدين محمود زنكي رسولاً إلى بغداد سنة 564هـ ثم سكن مصر قبل دولة صلاح الدين، وكان يعظ بجامع القرافة، وكان صلاح الدين يكاتبه ويحضره مجلسه هو وأولاده العزيز وغيره، وكان صلاح الدين يسميه عمرو بن العاص لصواب رأيه، وهو الذي أنهى إلى صلاح الدين خبر مؤامرة عمارة اليمني ورفاقة لإعادة الدولة الفاطمية، ولما فتح صلاح الدين القدس كان معه وتوفي سنة 599هـ بمصر. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 2، ص 530، أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 34 ـ 35، ابن رجب: المصدر السابق، ج 1، ص 346، العليمي: المصدر السابق، ج 2، ص 592.

(167) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 53 ـ 54، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 188، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 243 ـ 244، الحنبلي: المصدر السابق، ص 82، ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ص 224 ـ 225، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 294 ـ 295، المقريزي: السلوك، ج 1، ص 74 ـ 75.

بخطورة ما يدعون إليه، قام بإخبار صلاح الدين بكل تفاصيل المؤامرة، فطلب منه أن يظهر تعاطفه معهم وتواطئه على ما يريدون فعله وإخباره بما يتجدد من أخبار، ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه[168]. وبناء على ذلك استطاع صلاح الدين الوقوف على تفاصيل المؤامرة. وفي تلك الأثناء وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل بهدية ورسالة، وهو في الظاهر إليه (أي لصلاح الدين) والباطن إلى أولئك الجماعة، وكان يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم، فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق إليه من النصارى، وداخله فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته[169]. وعندئذ تأكد صلاح الدين من حقيقة الأخبار التي وصلته من القاضي ابن نجا وتدارك الأمر قبل وقوع الكارثة، فأمر بالقبض على هؤلاء المتآمرين جميعاً وقضى عليهم وسكنت الفتنة[170]. ثم قرب السلطان إليه زين الدين علي بن نجا وأحسن إليه بالأعطيات والإقطاعات، وأجمل وأعطاه وأجزل، وأتم له مراده وأكمل. وكان السلطان يستشيره ويروقه تدبيره ويميل إليه لقديم معرفته وكريم سجيته[171].

وكان من أبرز شخصيات العلماء والفقهاء الآخرين الذين ارتفعت مكانتهم وعلا نجمهم في أفق الدولة الصلاحية بما قدموه من خدمات جليلة في ميدان الجهاد والسياسة، شخصية القاضي الفاضل عبد الرحيم

(168) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 54، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 188، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 244 ـ 245، الحنبلي: المصدر السابق، ص 82 ـ 83.

(169) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 54.

(170) شاهنشاه بن أيوب: المصدر السابق، ص 267 ـ 268، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 188 ـ 190، أبو شامة: الروضتين، ج 1، ص 219 ـ 224، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 246.

(171) أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 58.

البيساني[172] الذي أتاحت له ظروفه ومنصبه أن يعاصر نهاية الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية، فكان يشغل منصب صاحب ديوان الإنشاء في وزارة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين، وهو الذي كتب تقليد الوزارة لكليهما من قبل الخليفة العاضد الفاطمي[173]. كما كان المتحدث الرسمي بلسان السلطان صلاح الدين في الداخل والخارج، وكان على حد قول ابن كثير: «أعز عليه من أهله وولده»[174]، وكان السلطان يشيد بفضله فيقول: «لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل»[175].

وقد بلغ القاضي الفاضل مكانة سامية في الدولة، فكان الساعد الأيمن لصلاح الدين، إذ جعله «وزيره، ومشيره بحيث كان لا يصدر أمراً إلا عن مشورته، ولا ينفذ شيئاً إلا عن رأيه، ولا يحكم في قضية إلا بتدبيره»[176].

وقد صحب القاضي الفاضل السلطان صلاح الدين في جميع غزواته ببلاد الشام، ثم أقام بمصر ليشرف على الإدارة المالية ويعمل على تجهيز الجيش والأسطول، وبعدئذ عاد إلى بلاد الشام بجوار صلاح الدين وظل بالقرب منه حتى مرضه الأخير وفاته مع القاضي ابن شداد سنة 589هـ/ 1193م[177].

---

(172) انظر ترجمته ص 176 من هذا البحث.

(173) القلقشندي: المصدر السابق، ج 10، ص 80 وص 90، ابن الفرات: المصدر السابق، ج 4، المجلد الأول، ص 34 وص 57.

(174) ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 27.

(175) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص 27، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 157. ويقول سبط ابن الجوزي: «إن صلاح الدين كان يشيد بفضله فيقول: ما فتحت البلاد بالعساكر وإنما فتحتها بكلام الفاضل»، ج 8، ص 304.

(176) السبكي: المصدر السابق، ج 7، ص 166 ـ 167، المقريزي: الخطط، ج 2، ص 366.

(177) ابن شداد: المصدر السابق، ص 250، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 213 ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 421، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 7، ص 202 ـ 203.

وهناك مواقف حاسمة للقاضي الفاضل تؤكد مكانته وعلو منزلته في الدولة الصلاحية، فعندما كان السلطان صلاح الدين مقيماً على مرج الصفر في بلاد الشام عام 571هـ/ 1176م طلب الصليبيون الهدنة منه فأجابهم إلى ذلك مضطراً «لأن الشام كان مجدباً»، ثم أرسل جيشه في صحبة القاضي الفاضل إلى الديار المصرية حتى يستريح أفراد الجيش بها من ناحية ولخوفه من حدوث أي اضطرابات في مصر أثناء غيابه عنها من ناحية أخرى. ولذلك كان إرساله للجيش بصحبة القاضي الفاضل «غاية الحزم والتدبير، ليحفظ ما استجد من الممالك خوفاً عليه ممن هنالك»[178].

وإلى جانب ذلك كان القاضي الفاضل دائماً يلازم السلطان صلاح الدين في جهاده، ولعل ما يؤكد ذلك تلك الرسالة التي بعث بها إلى السلطان صلاح الدين يعتذر فيها عن عدم مشاركته في الجهاد ضد الصليبيين على حارم سنة 573هـ/ 1177م، لرغبته في أداء فريضة الحج. فيقول ابن واصل: «وتخلف القاضي الفاضل بمصر بنية الحج في السنة القابلة، ووصل منه كتاب إلى السلطان يذكر فيه: (وأما تأسف المولى على أوقات تنقضي عاطلة من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، وتجدد العوائق التي لا يوصل إلى آخرها حبلها، فللمولى نية رشده، أو ليس الله بعالم بعبده، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله، لأنه غير مقدور له، ولكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة، وإذا كان المولى آخذاً في أسباب الجهاد، وتنظيف الطرق إلى المراد، وهو في طاعة قد من الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أمل في نجح موعدها، والثواب على قدر مشقته، وإنما عظم الحج لأجل جهده وبعد شقته، ولو أن المولى فتح الفتوح العظام في أول الأيام، وفصل القضية بين أهل الشرك وأهل الإسلام، لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت وصحائف البر المكتسبة

(178) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 79، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 252، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 311 ـ 312.

بالمرابطة والانتظار قد طويت)»[179].

وكان يقف بجانب القاضي الفاضل الفقيه شرف الدين بن أبي عصرون[180]، الذي ولاه نور الدين محمود قضاء مصر[181] بعد تولية صلاح الدين لوزارة الخليفة الفاطمي العاضد سنة 564هـ/ 1169م.

ومن المهام الجليلة التي قام بها القاضي شرف الدين بن عصرون هي حمل البشارة إلى الخلافة العباسية سنة 567هـ/ 1171م، بقطع صلاح الدين الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وإقامتها للخليفة العباسي المستضيء بالله. وكتب معه نسخة لهذه البشارة تقرأ بكل مدينة يمر بها، فسار إلى بغداد ولم يترك مدينة إلا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر، وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر والذكر حتى وصل إلى بغداد فخرج الموكب إلى تلقيه وجميع أهل بغداد مكرمين لخطير وروده معظمين لجليل مورده، ونثرت عليه دنانير

(179) ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 68، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 275 ـ 276. وهناك أدوار أخرى قام بها القاضي الفاضل في توطيد دعائم وحدة الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين، وسنواصل الحديث عنها في الفصل الثالث.

(180) هو عبد الله بن محمد بن هبة الله بن مطهر بن علي بن أبي عصرون، الفقيه الشافعي، الملقب شرف الدين. كان من أعيان الفقهاء وفضلاء عصره، ولد سنة 492هـ بالموصل ودرس بها.. ثم دخل حلب سنة 545هـ ودرس بها، ثم قدم دمشق لما ملكها الملك العادل نور الدين محمود سنة 549هـ، وكان له فضل في بناء المدارس بحلب وحماة وحمص وبعلبك وغيرها، وتولى القضاء بسنجار ونصيبين وحران وغيرها من ديار بكر. توفي سنة 585هـ بدمشق. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 3، ص 53 ـ 57، السبكي: المصدر السابق، ج 7، ص 132 ـ 136، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 4، ص 283.

(181) كتب نور الدين محمود كتاباً إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وهو بحلب ليوليه قضاء مصر، ورد فيه: «أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله دار إسلام بعدما كانت دار كفر ونفاق، فللّه المنة والحمد. إلا أن المقدم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل وبها النجاة.. وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت، ولا أقدر أولي أمورها ولا أقلدها إلا لك، حتى تبرأ ذمتي عند الله، فيجب عليك وفقك الله أن تشمر عن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءها وتعمل بما تعلم أنه يقربك إلى الله. وقد برئت ذمتي وأنت تجاوب الله». انظر: أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 174.

الأنعام، وحبى بكل إحسان وإكرام، وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين»[182].

واستمر القاضي شرف الدين بن أبي عصرون مشاركاً في الحياة السياسية بعلمه وآرائه، وسفيراً لصلاح الدين إلى الخلافة العباسية ببغداد حتى كانت موقعة حطين سنة 583هـ/ 1187م. وأكد المؤرخون مشاركته لصلاح الدين في هذه الموقعة العظيمة التي فتح الله بها معظم مدن الساحل الشامي وبيت المقدس[183].

ولم يكن هذا الفقيه الوحيد من رجال العلم والدين الذين شاركوا في تلك المعركة الحاسمة في تاريخ الأمة الإسلامية، بل يجمع المؤرخون على اشتراك أعداد غفيرة من المتطوعة الذين انضموا إلى جيوش صلاح الدين في هذه المعركة. فيذكر ابن الأثير في شأن استعراض صلاح الدين لعسكره للاطمئنان على تمام التجهيز والاستعداد لملاقاة العدو: «وعرض العسكر فبلغت عدتهم اثني عشر ألف فارس ممن لهم الإقطاع والجامكية[184] سوى المتطوعة، فعبأ عسكره قلباً وجناحين وميمنة وميسرة وجالشية[185] وساقه، وعرض كل منهم موضعه وموقفه وأمره بملازمته، وسار على تعبيته»[186].

(182) أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 197 ـ 198 وص 215، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 283، المقريزي: السلوك، ج 1، ص 64 ـ 65.

(183) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 252، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 82، الحنبلي: المصدر السابق، ص 120 ـ 121، ابن بهادر: المصدر السابق، لوحة 54.

(184) الجامكية: جمعها جامكيات، وهي الرواتب عامة. ذكرها القلقشندي أن نفقة مماليك السلطان كانت عبارة عن جامكيات وعليف وكسوه. القلقشندي: المصدر السابق، ج 3، ص 457.

(185) الجاليش: بمعنى الراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر، ويقصد بها أحياناً طليعة الجيش. والجالشية هم حملة هذه الرايات. انظر: القلقشندي: المصدر السابق، ج 4، ص 8، المقريزي: السلوك، ج 1، ص 184، حاشية (1) وص 628، حاشية (4).

(186) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 144.

ثم يؤكد ابن الأثير دور المتطوعة من رجال الدين في هذه المعركة موضحاً أنهم قاموا بإشعال النار في بعض المواقع، فأدى ذلك إلى هروب الصليبيين نحو تل حطين للابتعاد عن حرارة النار والدخان، فأحاط بهم المسلمون واستطاعوا الظفر بهم. ومما ذكره ابن الأثير في ذلك: «وكان بعض المتطوعة قد ألقى في تلك الأرض ناراً، وكان الحشيش كثيراً فاحترق، وكانت الريح فحملت حر النار والدخان إليهم (أي الفرنج)، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال، فلما انهزم القمص سقط في أيديهم، وكادوا يستسلمون، ثم علموا أنهم لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه. فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم لولا لطف الله بهم، إلا أن الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون إلا وقد قتل منهم، فوهنوا لذلك وهناً عظيماً، فأحاط بهم المسلمون إحاطه الدائرة بقطرها، فارتفع من بقى من الفرنج إلى تل بناحية حطين، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحملوا أنفسهم بها، فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ومنعوهم عما أرادوا، ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير، وأخذ المسلمون صليبهم الذي يسمونه صليب الصلبوت...»[187].

ومما يؤكد اشتراك المتطوعة من رجال الدين والعلماء والفقهاء في هذه المعركة، ما أجمعت عليه المصادر العربية أن صلاح الدين بعد فتح حطين بيومين طلب الأسرى من الداوية والاسبتارية[188]، وأمر بقتلهم جميعاً وتطهير

(187) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 147، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 2، ص 251، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 77، ابن شداد: المصدر السابق، ص 62 ـ 63، رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 75 ـ 78. انظر أيضاً:

Eracles: Op. Cit., t. II, pp. 64-69, Geoffry de Vinsauf: Op. Cit., pp. 74-76, King: Op. Cit., p. 127, Grousset: Op. Cit., t. II, p. 725, Stevenson: Op. Cit., p. 249.

(188) هم جماعة دينية حربية مسيحية تعرف عند المؤرخين بالأسبتارية وعند الغربيين باسم Hospitallers، وترجع تسميتهم بهذا الاسم عندما أسس بعض تجار مدينة أمالفي الإيطالية في بيت المقدس سنة 463هـ/ 1070م جمعية خيرية في بيمارستان قرب جنوبي باب الضريح المقدس للعناية بفقراء الحجاج، ومن ثم أطلق عليهم فرسان =

الأرض منهم ومن خيانتهم وغدرهم بالمسلمين. ويقول أبو شامة في ذلك الشأن: «وكان بحضرته جماعة من المتطوعة المتورعة والمتصوفة والمتعممة والمتصرفة ومن تمت له المعرفة بالزهد والمعرفة، فسأل كل واحد في قتل واحد، وسل سيفه وحسر عن ساعده، والسلطان جالس ووجهه باشر والكفر عابس»[189].

وقد قام السلطان صلاح الدين بإرسال البقية الباقية وصليب الصلبوت إلى دمشق مع القاضي شرف الدين بن أبي عصرون[190].

وكانت مكانة هؤلاء العلماء والفقهاء عند صلاح الدين بالغة الرفعة ونالوا حظاً وافراً عنده، فكان مجلسه حافلاً بأهل العلم والفضل. ويذكر العماد في هذا الشأن أنه كان «يؤثر سماع الحديث بالأسانيد، وتكلم العلماء عنده بالعلم الشرعي المفيد. وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة

= المستشفى وحرفت فيما بعد إلى أسبتارية. ثم تطوعت هذه الجماعة فيما بعد لحماية الحجاج، وأبدى رجالها من ضروب الفروسية والإقدام ما جعلهم موضع احترام الملك جود فري دي بوايون ملك بيت المقدس، فأقطعهم إحدى الضواحي وتوالت عليهم الهبات والإقطاعات، وكان أول رئيس لها يدعى جيرارد Gerrard ثم تحولت هذه الجماعة إلى منظمة عسكرية لها شأن كبير في تاريخ الحروب الصليبية، وتحول أعضاؤها أيضاً إلى رجال دين ودنيا في نفس الوقت، فكانوا يلبسون مسوح الرهبان واتخذوا شارة تميزهم عن سائر طوائف الفرسان بأن جعلوا صليباً أبيض على ستراتهم التي يرتدونها فوق أدواتهم الحربية، وهم يحاربون من فوق ظهور الخيل، ثم أصبحت لهم متاجر وحوانيت وحصون وقلاع يتمتعون فيها ويتحصنون بها. لمزيد من التفصيلات انظر:
King: Op. Cit., pp. 21-23.

كذلك انظر: رانسيمان: المصدر السابق، ج 2، ص 248 ـ 249.

(189) أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 79، العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 86، حيث يذكر العبارة كالتالي: «وكان عنده جماعة من أهل العلم والتصوف، وعدة من ذوي التعفف والتعيف، فسأل كل واحد في قتل واحد، وسل سيفه وحسر عن ساعده...».

(190) أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 82، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 252، الحنبلي: المصدر السابق، ص 120 ـ 121.

القضاة في القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية والأسباب المرضية والأدلة المرعية»[191].

كما يذكر أيضاً ابن شداد عنه: «ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به... وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم، سعى إليه وسمع عليه»[192].

وكان صلاح الدين الأيوبي يتردد إلى الحافظ أبي طاهر السلفي[193] بالاسكندرية ويستمع عنده الحديث هو وأولاده وإخوانه لما بلغه هذا العالم الفقيه المحدث من شهرة عظيمة[194]. كما كانت علاقة صلاح الدين بالإمام قطب الدين النيسابوري علاقة وطيدة، لأنه كان دائم المناقشة والبحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء فيما يحتاج إلى تفهمه، لهذا جمع له القطب النيسابوري عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدة

(191) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 656، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 217، الحنبلي: المصدر السابق، ص 61.

(192) ابن شداد: المصدر السابق، ص 7، الحنبلي: المصدر السابق، ص 62.

(193) هو الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد، الحافظ السلفي الأصفهاني الملقب صدر الدين، المتوفي سنة 576هـ بالإسكندرية. دخل ثغر الإسكندرية سنة 511هـ وقصده الناس من الأماكن البعيدة وسمعوا عليه وانتفعوا به، وبنى له العادل بن السلار مدرسة بالإسكندرية سنة 546هـ. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 1، ص 105 ـ 107، السبكي: المصدر السابق، ج 4، ص 43، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 4، ص 255، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 328 ـ 329، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 87.

(194) ابن شداد: المصدر السابق، ص 7، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 230، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 268 ـ 269، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 86.

حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم من الصغر[195].

وخلاصة القول أن رجال الدين من علماء وفقهاء كانوا يحتلون مكانة عظيمة وحظوة كبيرة عند كل من عماد الدين زنكي وولده نور الدين محمود ثم عند صلاح الدين الأيوبي من بعدهما، ونالوا منهم كل عطف ورعاية واحترام وتقدير من الناحيتين المادية والمعنوية. وقد اتضح ذلك مما أوردناه سابقاً، فكانت آراؤهم موضع اعتبار وتقدير من هؤلاء الملوك، واستشارتهم واجبة في كل الأمور الشرعية التي تمس كل نواحي الحياة في الدولة. بل لقد أصبح لهؤلاء العلماء والفقهاء السيطرة الروحية على أذهان الناس جميعاً، وبلغت مكانتهم حداً كبيراً من الرفعة لدرجة أنهم أثروا تأثيراً بالغاً في الشعوب والحكومات. ولا أدل على ذلك من أن الحكومات قد أسلمت زمام الدفاع والقتال لرجال الدين أمثال الفقيه عيسى الهكاري الذي أجاد وبرع في الناحيتين الدينية والحربية في عصر صلاح الدين.

(195) ابن شداد: المصدر السابق، ص 5 ـ 6، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 219، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 5، ص 196 ـ 197.